THE BOOK WAS DRENCHED

UNIVERSAL LIBRARY

OU_191049
UNIVERSAL LIBRARY

ملكُ النهرِ الذهبي

الفصل الأول

فِي قَدِيمِ ٱلزَّمَانِ، وَفِي بُقْعَةٍ جَبَلِيَّةٍ مُنْعَزِلَةٍ فِي بِلَادِ إِسْتِرْيَا ، كَانَ هُنَالِكَ وَادٍ خَصِيبٌ، غَنِيٌّ بِكُلِّ شَيْءٍ . وَحَوْلَ ذٰلِكَ ٱلْوادِي كانَتِ ٱلْجِبَالُ ٱلشُّمُّ ، مُرْتَفِعَةَ ٱلرَّأْسِ بِقِمَمِهَا ٱلْمَكْسُوَّةِ بِالثَّلْجِ ، تَنْحَدِرُ مِنْهَا ٱلْمِيَاهُ فِي شَلَّالَاتٍ دَائِمَةِ ٱلْهَدِيرِ .

وَبَيْنَ هٰذِهِ ٱلْمَسَاقِطِ ما كَانَتْ مِياهُهُ تَنْحَدِرُ إِلَى جِهَةِ ٱلشَّرْقِ عَلَى صَفْحَةِ صَخْرَةٍ باسِقَةٍ ، فَإِذَا ما غَرَبَتِ ٱلشَّمْسُ ، وَغَطَّى ٱلظَّلَامُ كُلَّ شَيْءٍ

فِي ذٰلِكَ ٱلْمَكانِ ، فَإِنَّ أَشِعَّتَهَا لَا تَزَالُ مُنْطَبِعَةً عَلَى مِيَاهِ ذٰلِكَ ٱلْمَسْقَطِ ، حَتَّى إِنَّهَا كَانَتْ تُشْبِهُ مَسِيلًا مِنَ ٱلذَّهَبِ . لِذٰلِكَ كَانَ أَهْلُ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ يُلَقِّبُونَ هذا ٱلنهْرَ بِالنهَرِ ٱلذَّهَبِيِّ .

وَكَانَ عَجِيباً أَلَّا تَجِدَ مِن بينِ هـذه ٱلْجَدَاوِلِ مَا يَنْحَدِرُ إِلَى ٱلْوَادِي نَفْسِهِ ، بَلْ إِنَّهَا جَمِيعاً كَانَتْ تَسْقُطُ عَلَى ٱلسُّفُوحِ ٱلنَّائِيَةِ ، وَتَجْرِي بَيْنَ سُهُولٍ مُمتدَّةٍ وَبينَ بِلادٍ آهِلَةٍ . وكانتِ ٱلسُّحُبُ دائمةَ ٱلتَّجَمُّعِ حولَ تِلكَ ٱلقِمَمِ ٱلبارِدةِ ٱلْمُتَوَّجَةِ بالثُّلُوجِ ، حَتى إذا ما كانَ ٱلصَّيفُ ، وجفَّ ذلك ٱلْمكانُ

واُحْتَرَقَ ما فيهِ، كان ذَلكَ الوادى نادِياً ماطِرًا . وكانتْ ثِمارُهُ وَفِيرَةً ، وكان حَصِيدُهُ غَنِيًّا ، وكان تُفَّاحُهُ أحمَرَ زَاهِياً ، وَعِنَبُهُ أزرَقَ شَهِيًّا ، وكانَ غَنِيًّا بِنَبِيذِهِ وبِعَسَلِهِ ، حَتى إنهُ كانَ أُعْجُوبَةً لِمَنْ عَرَفَهُ ، فَكَانُوا يَدْعُونَهُ « وَادِيَ الْكَنْزِ » .

وَكان هٰذا الوادِى مِن نصيبِ إخْوَةٍ ثلاثةٍ : شِفَارْتِس ، وهانز ، وجُلوك . وكان الأوَّلان مِنْ أقْبَحِ الناس خَلْقاً ، بِأهْدَابٍ غَزِيرةٍ ، وعُيونٍ ثَقِيلَةٍ نائمةٍ ، لَا تَكَادُ تَرى ما خَلفَها ، معَ أنَّ صاحِبَها قدْ يكون مُحدِقاً النظرَ إليك من وراء هذه العُيونِ البليدةِ .

وكان ٱلاخَوانِ يَعْملانِ فى فِلاحَةِ «وَادِى الكَنْزِ» هذَا ، وكانا عارفَيْنِ بأُصول ٱلفِلاحةِ وفُنونِها ، فكانا يَقْتُلَانِ كلَّ مَنْ لَا يَدْفَعُ ثَمناً لطعامِهِ . يَقتُلَانِ ٱلطُّيورَ ٱلتى تنقرُ ٱلثَّمَرَ وٱلفاكِهةَ ، وكَانا يَقتُلَانِ ٱلقنافِذَ خوفاً منْ أَنْ تَمُصَّ أَلبانَ ٱلبقرِ ، وكَانا يضعانِ ٱلسُّمَّ للعصافيرِ ٱلتى تَجْمَعُ فُتَاتَ ٱلخُبْزِ منَ ٱلمَطْبَخِ ، وتلكَ ٱلتى تُغَنِّى على أَشجارِ ٱللَّيمونِ .

وكانا لا يَدفَعانِ أَجْرًا لِمَنْ يَستخدِمانِهِ مِنَ ٱلناسِ ، حتى إِذَا ٱمتنعَ ٱلرجلُ عنِ ٱلعملِ ، تَخاصما معه ، وطرداه شرَّ طردٍ .

وليس غريبا أن يَجمعَ كلُّ مَنْ سارَ عَلَى نَهْجِهِما ثروةً عريضةً ، وهكذا فعَلَا . وكان لهما فى جمعِ المالِ طُرُقٌ ووسائِلُ ، مِنها أَنَّهُما كانا يَخْزُنانِ الغَلَّةَ حتى إِذا اشتدَّ الطلبُ عليها بَاعَاها بضِعفِ ثمنِها ، فَجَمَعَا بذلك الذهبَ أكْوَاماً ، ومع ذلك لم يُسْمَعْ عنهما أَنهما قدَّما دِرهما واحدا ، أَو فَلْسًا فى سبيلِ الْخيرِ والإِحسانِ .

وما كان هذانِ الأَخوانِ يَذْهَبان يوما للصلاةِ ، وَكانا يَتَضَجَّران لدفعِ نصيبِهما مِنَ الضَّرائبِ ، ولم يكُنْ يَحْمِلُ لهما أَحَدٌ مِنَ الناس حُبًّا أَوصَداقَةً ، لِما

انطوتْ عليه نَفْسُهُمَا من قَسْوةٍ وغِلٍّ وضَغِينَةٍ ، حتى أطلقَ عليهما مَن عرَفَهُمَا « الْأَخَوَانِ الْأَسْوَدَانِ »

* * *

وكان أَخُوهُما الْأَصْغرُ « جُلوك » يختلِفُ عنهما في كل شيءٍ : يختلِفُ عنهما في الْخُلُقِ وفي الْخَلْقِ ، لم يتخطَّ إذْ ذاك عامَه الثانيَ عشَرَ ، صَبوحَ الوجهِ ، أَزْرقَ العينيْنِ ، له قلبٌ يَخْفُقُ للرحمةِ والإنسانيَّةِ . وما كان جُلوك ليتفِقَ مع أَخَوَيه في فِعالهما هذه ، وأَصْدقُ من هذا أن نقولَ إنهما ما كانا ليتفِقا معه في

حِباعِه ، ولم يَرضَيا أن يَنْحُوَا نَحوَهُ .

وكان أَخَوَاهُ يُوكِلانِ إليه مُهِمَّةَ الطَّهْيِ ، اذا ما كان لديهما شيء يَطْبُخانِهِ ، وقليلًا ما يكونُ ذلك . لِأَنهُما كانا بَخِيلَيْنِ في طعامِهما ، كما كانا شَحِيحَيْنِ في مُعاملةِ الناسِ .

وكان جُلوك في بعضِ الاحيان ، يقومُ بِنظافةِ الأَحْذِيةِ وبكَنْسِ البيتِ . وفي بعضِ الاحْيانِ يَغسِلُ الأَطباقَ ويأكلُ ما عليها من بَقيَّةِ الطعامِ الذِي يُخَلِّفَانِهِ ، ولم يكنْ جَزاؤه على ذلك الّا سيلٌ من اللَّطمَاتِ تأديباً له وتَخْويفاً ، وهكذا مرَّتِ الأيامُ على



وفى بعض الأحيان يغسل الأطباق و يأكل ماعليها

هذا النَّسَقِ ، الى أن جاء صَيفٌ ماطرٌ عَبَثَ بكلِّ ما نبت حولَ ذلك الوادى ، فلمْ تَـكَدِ السَّنابِلُ تمتلِئُ والبرَاعِمُ تَتفتَّحُ حتى حَمَلَتْهَا المياهُ الْجارفةُ الى الْبحرِ. أَمَّا الكُرُومُ فقد تَقصَّفتْ أَعوادُها ، وأَمَّا الغَـلَّةُ فقد أَتْلفتْهَا الْحشراتُ

أما وادى الكنزِ ، فكانتِ الْحياةُ فيه سَهلةً ، تَهطِلُ عليه الأمطارُ عند ماتـكونُ الى المطرِ حاجةٌ ، وتشرُقُ عليه الشمسُ دافئةً عندماتكونُ محتجبةً فى كلِّ مكانٍ .

وَكان كلُّ من جاء ليشترىَ من غَلّةِ هذيْن الأَخويْن يرجِـع وهو يقُص أَنذلَ القَصَصِ عنهما ، اذ أنهما كانا يطلُبانِ منهم أثمانًا باهِظةً ، يقدّرانها كيف شاءا ،

حتى إن الفقراء الذين كانوا فى عُسرٍ وحاجةٍ ، ولا يقدرونَ على دفعِ هذه الأثمانِ ، كانوا يَتَضوَّرُونَ جُوعًا تحت جُدْرانِ بَيْتِهِما ، دون أن تأخذَهُما بهم رحمةٌ أَو شفَقَةٌ .

وحدث فى يومٍ من أَيامِ الشتاء ، وكان قارًّا باردًا أَنْ ذَهَبَ هذانِ الأَخَوَانِ الى حاجةٍ ، وتركا « جُلوكَ » الصغير ـ بعد أن حذراه كعادتهما ـ يرعى الشِّواء وأَمَرَاهُ أَن يُقفِلَ البابَ فى وجهِ كلِّ طارقٍ . وهكذا جلس « جُلوكَ » بجانبِ الْمِدْفَأَةِ يَصْطَلِي ، اذ كان المطرُ ينهمرُ إذ ذاك انهِمَارًا .

أَخَذ « جُلوك » ينظر الى الشِّواء وقد بدأ يَنضَجُ ، ويُحدِّثُ نفسَه ، ويَعْجَبُ كَيْفَ أَن أَخَويْهِ لَم يَدْعُوَا يوماً ما ضَيْفاً للغِذاءِ معهما . فبينما هما يطعَمان هذا اللَّحمَ الشَّهِيّ ، نَرَى الـكثيرَ ، لَا يجدُ لُقْمةً يَتَبَلَّغُ بها . وكم كان حسناً لو أَنهما أَشركا مِثلَ هؤلاء ، فغرسا بذلك الرحمةَ فى قُلُوبِهِمْ !

ولم يكدْ ينتَهِي من حديثِه هذا حتى سمِع نقراً عنيفاً على البابِ ، أَشبهَ شيْء بخَبطِ الريح . لأنه كان واثقاً من أن أحداً من الناسِ لا يجرُؤُ على طرْقِ بَابه بهذه الشِّدَّةِ والعُنْفِ .

ولـكن لا ، ليستْ هى الريحَ ، لأن الطارقَ قد أعاد النقرَ بشدةٍ ، كأنه على عجلٍ ، وما هو بخائفٍ وما هو بهائبٍ مَغَبَّةَ عمـلِهِ . ذهبَ « جلوك » الى النَّافذةِ ، وأطلَّ منها ليرى مَن الطارقُ :

وما أشدَّ عجبَهُ حين رأى رجلًا قَزْمًا لم يَرَهُ من قَبلُ ، لَه سِحْنَةٌ نُحاسِيَّةٌ قد لَفحَتْهَا الأجواء ؛ أمَّا أنفُه فكان طويلا متمدِّداً . أمَّا خَدُّه فكان مُسْتَدِيراً ، أَحمرَ اللَّونِ ، كأنَّ صاحبَه كان ينفُخُ النَّارَ يَومَين كامِلَين . وكان يَنْظُرُ بعينَين مَرِحتَين من خلفِ أَهْدابٍ طويلةٍ حريريَّةٍ . أمَّا شَعَرُه فقد وخَطَهُ

الشَّيْبُ ، طَوِيلٌ ، مُتَدَلٍّ على أكتافِهِ ، له شواربُ طويلةٌ مفتولةٌ حجبت فَمَه .

وكان هـذا السيِّدُ الذى لم تَبلُغْ قامتُه أقداماً خمسةً يلبَسُ قَلَنْسُوَةً فى مثلِ هذا الطولِ ، حلّاها بِريشةٍ سوداءَ طويلةٍ . وكان يجُرُّ ذيلا وراءه ، ويَحمِلُ على كَتِفَيْهِ قَباءً عظيما كثيرَ الأردانِ ، فكان بهذا القَباءِ وهذا الذيلِ ـ وقد حَمَله الريحُ ـ كأنَّه أحدُ تِلك الطُّيورِ ذوَاتِ الذُّيولِ الطويلةِ الراقصةِ

لهذا ، ليس عجباً أَن يَقِفَ « جُلوك » مُسمَّراً فى مكانه ، وهو يُمعِنُ النظرَ دون أن يَفْتَحَ فَمَهُ الى

هذا الزائرِ الغريبِ . وَبَينما كان هــذا الزائرُ يَتلفَّتُ ليُصلِحَ قبَاءهُ الذى حملتْ أَرْدانَه الريحُ ، إِذَا بهِ يرى رَأساً صغيراً يُطِلُّ عليه بِعُيونٍ مفتُوحةٍ وفَمٍ مُنْفَغِرٍ ، فنظر إِليه ذلك السيدُ الصغيرُ وقال : « أهكذا تُجيبُ على نِداء طارقٍ مثلى قد بللَّهُ المطرُ ؟ أَلا دعنى أدخلُ » .

وكان ذلك الطارقُ حقّاً مُبلَّلا ، فقــد تدلت ريشتُه الطويلةُ بين ساقيْه كأنها ذَيلُ جَرْوٍ مضروبٍ ، وكنتَ ترى الماء يسيلُ من طرَفَىْ شَوارِبِهِ الى جُيوبِ مِعطَفِهِ ، كأنها جَدْولُ طاحونٍ من طَواحِينِ الهواء .

فنظر اليه « جُلوك » وقال : اسمَحْ لى ياسيِّدى أن أقولَ إنّنى آسِفٌ جِدَّ الأسَفِ لعدمِ سماحى لَكَ بالدُّخولِ . . .

فقال السيدُ : « ماذا تقولُ ؟ »

— « حقًّا ياسيدى إِنَّنى لا أقدِرُ ، إِنَّنى لا أقدِرُ أن أدعَك تدخُلُ ، لأننى إذا فعَلتُ ذلك كان نصِيبِى مِن أخوَىَّ الضَّرْبَ دون رَحْمةٍ ـ ولكنْ ماذا تُريدُ ياسيدى ؟ »

— « ما ذا أُريدُ ! أَلا ترى أَنَّنِى أريدُ دِفْئًا وهاهى نارُكَ ملتهبةً ، ترقُصُ فى الْحُجْرَةِ دون أن



فنظر اليه جلوك وقال

يُحِسَّ بها أحدٌ . أَلا فاسمَحْ لى أَن أَصْطلِيَ ، ولا أُريدُ أَكْثرَ من ذلكَ »

وكَانَ « جُلوكْ » قد أَطلَّ طويلًا من النافذَةِ وشَعَرَ ببُرودَةِ الهواء . ثم لما أَدار وجهَهُ ورأَى النارَ ذاكيةً مُلتَهبةً تُرْسِلُ أَلسِنَتَهَا الحمراءَ إلى المَدْخنةِ كأنها تَلحَسُها وقد عَبِقَتْ رائحةُ الشِّواءِ بالمكانِ ، حَرَّكتِ الشفقةُ قَلْبَه وقال له :

« ان الجوَّ باردٌ حقًّا ، سأَدَعُك تدخلُ ، ولكن بعضَ ساعةٍ ليس إِلَّا » .

ذهب « جُلوكْ » إلى البابِ وفتَحه . وبَينما

كان هذا السيِّدُ الصغيرُ فى طريقِهِ إلى حيثُ ألنارُ ، عصَفتِ الريحُ فى البيتِ حتى إنَّها رجَّتْ أَرْكانَهُ ، ثم نَظرَ الى جُلوكـ وقال له : « لا تخَفْ يابُنَىَّ العزيزَ سوفَ أُوضِّحُ ذلك لِأَخَوَيكَ » .

فقال « جُلوكـ » : لا تفعلْ ياسيدى مثلَ هذا ، إذْ أنَّنِي لن أَدَعَكَ حتى يحضُرا ؛ إلّا اذا أردتَ مَوْتى » .

فقال السيدُ العجوزُ : « إننى آسِفٌ حقًّا لأسمعَ هذا ، ولـكن إلى متى ستَسْمَحُ لى بالبقاء ؟ »

— « إلى أَن ينضَج هـذا الشِّواء ياسيِّدى ،

وها قد بدأ يَحمَرُّ لَونُه » .

سار الضَّيفُ الصغيرُ إلى المَطبَخ ، وجلسَ عَلَى مقعَدٍ وَاطِىءٍ حولَ المِدفَأةِ وقد أَدار قَلَنْسُوَتَهُ الطويلةَ إلى المَدخَنةِ ، إذ أَنَّ سَقْفَ الْحجرةِ كان واطِئاً .

نَظر إليه « جُلوكـ » وقد جلس يُديرُ الشِّواءَ وقال له : سَوفَ تَجِفُّ ملابسُك سريعاً ياسيِّدى » .

ولـكنْ تِلكَ الملابسُ كانت تقطُرُ المياهُ من كل ثَنْيةٍ فيها على نار المِدفَأةِ التى أَخذَ يَخبُو أُوَارُهَا ، وأخذت تَستحيلُ فَحماً ورَماداً ، حتى إن « جُلوكـ » وقدشاهدَ الماءَ يجرى كأنه جداوِلُ الزِّئبق على أَرضِ

الْحجْرةِ ، لم يَرَ بُدًّا من أَن يسأَلَه أَخْذَ قَبائِه بعيداً .

— « لا ، شكرا لك » .

— « دَعْنِي ياسيِّدى أُجفِّفُ قلنسُوَتكَ إذًا ؟ »

— « شكراً لك ، لا تَفعلْ » .

فنظر إليه « جُلوك » مُتردِّداً . وقال : « ولكنْ ـ ولكنك ياسيِّدى ـ حقًّا ، وَلكنّك أَطفأْتَ النّارَ » . فأَجاب الزائرُ « لهذا سوف يأْخُذُ الشِّواء وقتاً طويلًا حتى ينضَجَ ! »

وقد أَثارَ سُلوكُ الزائرِ العَجبَ والْحيْرةَ فى نفسِ

« جُلوك » حتى إنه حوَّل وجهَهُ الى الشِّواء وهو يفكرُ طويلًا .

فقطع الزائرُ حَبْلَ السكوتِ وقالَ :

« إن الشِّواء يبدو شهيًّا ، أَلَا مِنْ قِطعةٍ ؟ »

« هذا مُحالٌ »

— « ولكنَّنِي جائعٌ جِدًّا ، إذ أنني لم أَذُقْ شيئًا مُنذُ أَمسِ ، ولا أَظنُّ أَخَويْكَ يَفتقِدانِ قِطْعةً صَغيرةً منْ هذا الشِّواء الكثيرِ » .

وقد كان صوتُ الزائرِ حَنونًا ، أَثارَ الشفَقَةَ في نفسِ « جُلوك » فأَجابهُ : « إنني وُعِدْتُ بقطعةٍ

منْ هذا الشِّواء فهى لك ، على ألّا تطلُبَ أكثرَ منها » .

فقال السيدُ الصغيرُ : « إنك ولدٌ طيِّبٌ حقًّا »

فذهب « جلوك » يَسُنُّ المُدْيةَ ويُشَجِّعُ نفسه بقوله « إنّنى غيرُ آبِهٍ ، ولو ضُرِبْتُ لأجلِ ذلكَ »

ولكنّه ما كادَ يَقطعُ شيئاً من ذلك الشِّواء حتى سمِع طرْقاً عنيفاً على البابِ ؛ فوثَب الزّائرُ منْ مكانِهِ بَيْنَمَا أَخذَ « جُلوك » يُلصِقُ الْقِطعةَ مكانَها من الشِّواء ، ثُمَّ جَرَى جَزِعًا لِيفتَحَ البابَ عندئذٍ دوَى صوتُ شِڤارتس فى المكان :

— « أهكذا تدَعُنا ننتظرُ طويلًا تحْتَ المطرِ »

ثم رَمى بِمَظَلّتِهِ فى وجه « جُلوك » الصغيرِ .
وأَعقَبَه « هانز » لَاطِماً أُذُنَهُ بينَما كَانَ يتبَعُ أَخاهُ
إلى المَطْبَخِ .

فَما كادَ يفتَحُ « شفارتِس » بابَهُ حتّٰى صاحَ
« يا إلٰهى ، الرَّحمةَ . . »

فأجاب الضيفُ الصغيرُ « آمين » . وقد وقَفَ
فى وَسَط الْحُجرةِ يحمِلُ قَلَنْسُوَتَهُ فى يده ، وهو
يَنْحَنِى طَوِيلًا .

فالْتَقَطَ « شِفارتِس » هِراوة ، وجَرى غَاضِباً

وَرَاءِ « جُلوكَ » وهو يَصِيحُ : « مَن هُوَ هذا ؟ »

— « إننى يا أَخِى لا أعرِفُهُ . . . »

فصاح « شڤارتِس » مُزَمْجِراً « ولكنْ كيفَ دخَل هُنَا ؟ »

فأجاب « جُلوكَ » يائسا :

لقد كان مُبَلَّلا بِالمطرِ ..

وما كاد يسمعُ ذلكَ حتى كانتْ تلك الهِراوةُ تَنْحَدِرُ على رأسِ جُلوكَ ولكن سَرْعانَ ما وضَعَ الضيفُ الصغيرُ قَلَنْسُوَتَهُ فى طَرِيقها فَنَثَر الماء فى كلِّ رُكْنٍ من أرْكانِ الْحُجْرَةِ. وَأَعجَبُ مِن

ذلك أن شِڤارتس ما كادَ يلمِسُ تلك القَلَنْسُوَةَ بِهِرَاوَتِهِ حتى انفَلَتَتْ من يدِهِ وأَخذتْ تَدُورُ على نَفْسِهَا حتى وقعتْ فى رُكْنِ الْحُجْرَةِ .

فصاحَ شِڤارتس بِحَنَقٍ وأَدارَ وجهَهُ نَحوَ السيِّدِ « من أنتَ ياسيِّدِى ؟ »

وصاح هانز « وَما أَنتَ صَانِعٌ هُنا ؟

فأجابَ الضَّيفُ بصوت مُنكسِرٍ : « إننى ياسيِّدِى شيخٌ كبيرٌ ، أَخذتُ طريق بِبَابِكُمْ فرأَيتُ النارَ مُلتَهبةً ذَاكِيَةً فسأَلتُ هـذا الصغيرَ دِفئًا واَصطِلاءً بِضْعَ ساعةٍ . . .

فأجابه شِڤارتس « أتسمحُ الآن بالخروجِ ؟ لقد ملأتَ لنا البيتَ ماءً حتى أضحى كأنه المغسِلةُ »

— « ولكِن ألَا ترى ياسيِّدى أننى رجلٌ قد هَدَّهُ الكِبَرُ وبيَّضتْ شُعورَهُ الايامُ ؟ »

فأجابه هانز « نعم ، وهي غزيرةٌ كفيلةٌ بأنْ تُدْفِئَكَ ! اخرُجْ »

— « ولكنني جائعٌ جِدًّا ، ألا مِن قِطْعةِ خُبزٍ أتبلَّغُ بِها ؟ »

فصاحَ شِڤارتس « قِطْعةِ خُبزٍ ؟ هل تَظُنُّ أننا لا نَعْرفُ ماذَا نصنعُ بِخُبْزِنَا حتى نُوزِّعَه على أمثالِكَ

من ذوى الأُنُوفِ الْحَمْرَاء ؟ »

وَأَعْقَبَهُ هانز هازئاً . ولماذا لا تَبِيعُ رِيشَتَكَ الطويلَةَ ؟ . . اخْرُجْ !

فأجابَهُ الضَّيْفُ الصَّغيرُ « لُقْمَةَ خُبْزٍ ليس الّا »

فصاحَ شِفارتس « أُخْرُجْ ! »

— « أرجوكم ياسادَتِى . . . »

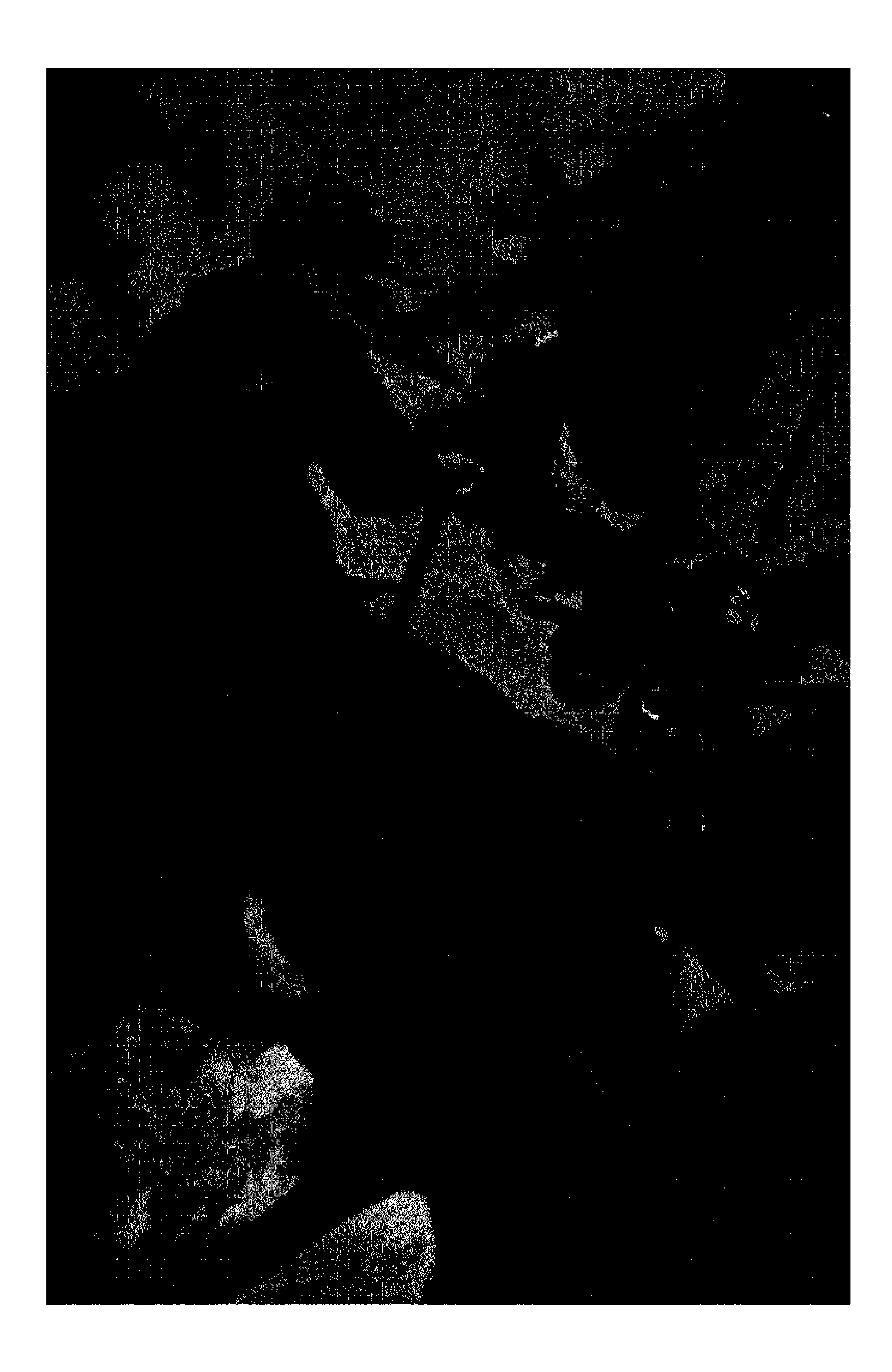
فَزَمْجَرَ هانز « سَوْفَ أُرِيكَ » ثم قَبَضَ عَلَى عُنُقِهِ ، ولـكنَّه ما كادَ يلمِسُ ذلك السيِّدَ ، حتى تَدَحْرَجَ وَهُوَ يَدُورُ على نَفْسِهِ كما فَعَلَتْ الهِرَاوةُ ، الى أَنِ انـكفَأَ عليها فى رُكْنِ الْغُرْفَةِ



ولكنه ما كاد يلمس ذلك السيد

فأخذَ الغضبُ من شِفارتس كلَّ ما أخذٍ ، وَجَرَى
الى ذلك الضَّيْفِ لِيُخْرِجَهُ منَ البيتِ ، ولكنه
ما كادَ يَلمِسُهُ بيدِهِ حتى كانَ في طريقِهِ الى الركنِ
حيْثُ هانز والهِراوَةُ ، وَقَدْ دكَّ رأْسَهُ على الْحائطِ .

عندَ ذلكَ سارَ الضَّيْفُ الى رُكْنِ الْغُرْفةِ الآخَرِ
وهو يَدُورُ على نَفْسِهِ كأنه الْمِغْزَلُ ، وَأَخذَ قَباؤُهُ
الطويلُ يلتفُّ حولَه ، ثم أَحْنَى قَلَنْسُوَتَهُ على رَأْسِهِ
« لانه اذَا تَرَكَهَا قَائِمَةً نَفَذَتْ منْ سَقْفِ الْغُرْفَةِ »
ثم جدَلَ شارِبَهُ ، ونظرَ الى الآخَرِيْنَ بِجُمُودٍ وقَالَ :
«سادتِي : عِمُوا صَبَاحًا ، واذا ما دقَّتِ السَّاعةُ مُؤْذِنَةً



بانتصافِ الليل فَسَوْفَ أَكون زائرَكم ، ولكنكم وقد قَبضتُمْ عنى يدَ الإحْسانِ ، ثِقُوا بأن زَوْرَتِى هذه سوفَ تكونُ الأخيرَةَ »

فوثَبَ شِڤارتس من مكانِهِ وهو يُزَمْجِرُ « إِنَّنى إذا لَقِيتُكَ مرةً اخرى فى هذا المكانِ ... » ولكنَّه قَبْلَ أَن يأتِىَ على آخرِ كلامِهِ ، كان السيِّدُ الصغيرُ قد تركَ البيتَ بعد أَن قَفَلَ بَابَه بِعُنْفٍ ، وما كادَ يَمُرُّ على النافذةِ ، حتى كانت تلك السُّحُبُ المتجمِّعةُ المعلَّقَةُ فى سماءِ الوَادِى ، قدِ اسْتَحَالَتْ طُوفاناً مِنَ الأمطارِ .

عند ذلك أدارَ شفارتس وَجْهَهُ الى جُلوك مُتوعدا « هذا جميلٌ حقًّا ياسيِّد جُلوك ، آه لو أننى رأَيتُك مَرَّةً أُخرى ... وَلـكنْ مَنِ الذى قطعَ اللَّحمَ ؟

فأَجابه جُلوك « أَلم تَعِدْنى بقِطْعةٍ منه ؟ »

— « وَمن أَمَرَكَ أَن تقطَعَها والشِّواءُ ساخِنٌ ، حتى تَأْخُذَ الدسمَ لنفْسِكَ . لذلك سَوفَ لَا أَعِدُكَ شيئاً الّا بعد عهدٍ طَويلٍ ، فاذْهَبْ الى مَخْزَنِ الفَحْمِ حتى أَدعُوَكَ .. »

وهكذا خرَجَ جُلوك حَزِيناً يائِسًا . وأَخذ الأَخَوانِ يأْكلَان من اللَّحمِ ما شَاءا ، حتى إِذا

فرَغَا خزَنَا ما بَقِيَ منه فى الْقِمطْرِ ، وأَخَذَا يحتَسِيانِ النَّبيذَ »

* * *

ويالهَا من ليلةٍ هوْجَاء ، عَصَفتْ فِيها الريحُ ، وانْهَمَرَ فيها الْمَطَرُ سُيولًا دُونَ هَوَادَةٍ . فقام الأَخَوانِ يُحكِمانِ قَفْلَ كُلٍّ نافذةٍ وبابٍ قبْلَ أَن يَذْهَبَا الى حَيْثُ يرْقُدَانِ مَعاً فى الْحُجْرَةِ .

فلما دقّتِ السّاعَةُ الثانيةَ عشْرةَ ، هَبَّ الأَخَوانِ فَجْأَةً عِند سَماعِ صَدْمَةٍ عَنِيفةٍ ، فإِذَا البابُ قد فُتِحَ بشِدَّةٍ ، رُجَّ لها البيْتُ رَجًّا مِن أَساسِهِ .

فصاح شِفارتس جزعاً مَا هذا ، مَا حَصلَ ؟

فأَجابه السيِّدُ الصَّغيرُ « ليسَ من أَحدٍ غيرى »

عِند ذلك وَثَبَ الأَخَوانِ منْ سَرِيرَيهمَا ، وجلسَا يُحدقَانِ النَّظَر فى الْحجرةِ المظلِمةِ ، التى قد امتلَأَتْ بالماءِ . ولـكنَّهما سرعان مَا اكتشفَا فى ضَوءِ الْهلالِ الباهتِ الذى وجدَ طريقَه من كُوَّةٍ من السَّقْفِ ، فُقَّاعَةً هائلةً تَسبَحُ على مِياهِ الغُرْفةِ كأنها قِطْعةٌ من الفلِّينِ وعلى ظَهْرِها وِسادة وثيرة قد تَربَّعَ عليها ذلكَ السَّيِّدُ الصغيرُ بملابسِهِ وقَلَنْسُوَته التى وَجَدَ لها الآنَ مكاناً بعد أَنْ خُرِقَ السقْفُ .



فصاح شفارتس جزعاً ماهذا ، ماحصل ؟

فَنَظَرَ اليْهما وقال « إِنّى آسفٌ جدَّ الأسف لِأنى جَعلتُ لـكُمَا هذِه الغُرفةَ غيْرَ صالحةٍ للنَّومِ ، وَلَيْسَ لى الّا أن أُشِيرَ علَيْـكُما بِالذَّهَابِ الى غُرْفةِ أَخيكُما الأَصغرِ ، لانَّ السَّقْفَ فيهَا مَا زالَ مكانَهُ » وَما كاد يأْتِى على آخِرِ كلامِه هـذَا حتَّى هَرَعَا الى حُجرة جُلوك وهما يَرْتَجِفانِ مِن البَلَلِ والْجَزَعِ .

ولـكنَّ الضَّيفَ الصَّغِيرَ لم يَـكُنْ قَدِ انتَهى من كلامِهِ ، إِذْ أَنَّهُ أَخذَ يَصيح خَلفَهُمَا « سَتَجِدانِ بِطاقَتِى على مِنْضَدَةِ المطبخِ . . تذكرا ، الزِّيارَةَ الأَخيرَةَ . . »

فأخذَ شِفارتس يُهَيْنِمْ « وأَرْجو أن تكون كذلكَ » وفى لحظةٍ اخْتَفَت الْفُقَّاعَةُ .

* * *

وجاء الفجْرُ فى النِّهايةِ ، حتَّى اذا بدأَ النُّورُ يتَفَتَّحُ نظرَ الأَخوان من نافذَةِ جلوك الصَّغيرِ إلى وادِى الكَنْزِ ، فاذَا بِالْخرابِ قد مدَّ يَدَهُ اليهِ فلمْ يَبْقَ من آثارِهِ الّا أَكْوَامُ الرَّملِ ، فقَدِ اكْتَسَحَ الطُّوفَانُ كلَّ شيء : الاشجارَ ، والزَّرْعَ ، والماشيةَ ولم يُخَلِّفْ الا بِركَ الوَحَلِ وَالطِّينِ .

فزَحَفَ الأَخوانِ وهما يَنتفِضانِ جزَعاً الى

المطْبَخِ ، فَرَأَيَا الماء قدْ شَقَّ طَرِيقَهُ الى طَابقِ البيْتِ السُّفلِيِّ وَحَمَلَ تيَارُهُ كُلَّ مَاصادَفَهُ مِنْ أَموالٍ أَوغَلَّةٍ وَلم يترُكْ إِلَّا قُصَاصةً بَيضَاء من الوَرَقِ قد كُتِبَ عليها بِخَطٍّ مُتَمَاوِجٍ مُضطَرِب :



الفصل الثانى

لقدْ كان سيدُ الرِّيحِ الغَرْبيَّةِ عندَ وَعْدِه ، فَمُنْذُ تلك الزَّوْرةِ لمْ يَعُدْ يراهُ أَحَدٌ فى وَادِى الكَنزِ وأَكثرُ من هـذا أنَّه تآمرَ معَ أَبْناءِ جِلدَتِهِ ، من الرِّياحِ الغَرْبيَّةِ فَحَذَوْا حَذْوَهُ

وحال الْحوْلُ وَلم تُبَلِّلْ قَطْرَةٌ من المطَرِ أَرْضَ ذلك الوادِى ، الذى استحالَ أَكْواماً جَرْداء من الرَّملِ الأَحْمَرِ ، هذا بَيْنما كَانَتْ السُّهُولُ التى تُجاوِرُهُ

خضراء يانعةً لم تعصِفْ بِها الرِّياحُ ولم تحْرِقْها الشمسُ القائِظَةُ

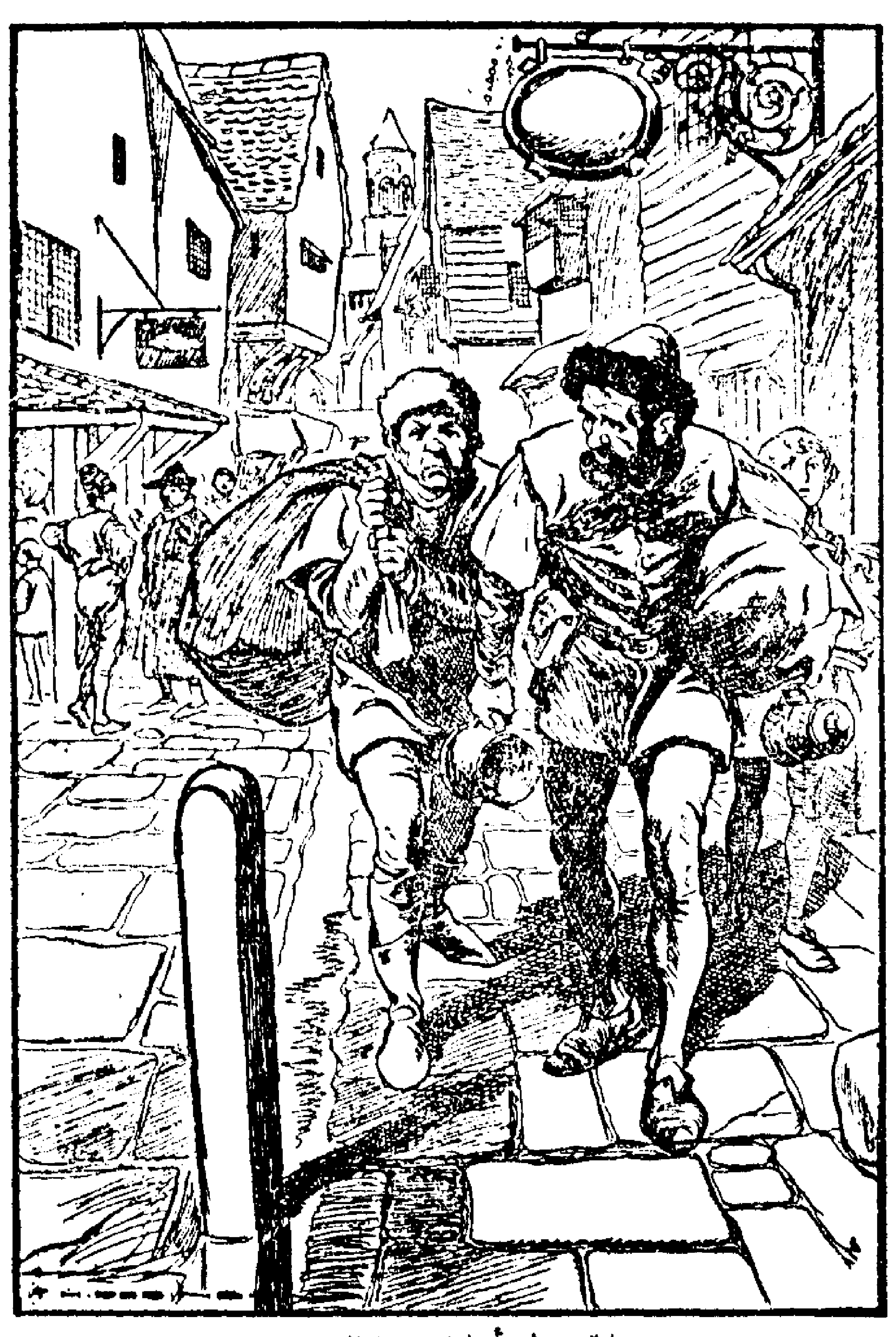
ولمّاَ لَمْ يَقدِرْ الأَخَوانِ عَلى جِلادِ غَضَبِ السَّماءِ لَمْ يجِدَا بُدًّا من الهِجرَةِ تارِكَيْنِ تُرَاثَهُمَا الميِّتَ ، نازحَينِ الى السُّهولِ القَريبةِ لِيَكْدَحا فى سَبِيلِ اللُّقْمَةِ . إِذْ لم يبقَ مِن آثارِ ذلكَ المالِ إلا قطعٌ من آنِيَةٍ ذَهَبيَّةٍ عَتيقَةٍ هِيَ كُلُّ ما يَدُلُّ على ذَلِكَ الْغنى الْمُندَثِرِ .

وَهكذَا شدَّ الأَخَوانِ رحالَهُما ، وبَيْنَما كَانَا فى الطريق الى مدينةٍ كبيرةٍ تلفَّتَ

شفارتس الى هانز وقال :

« وماَ تَرَى لَوْ أننا احترفْنا الصِّياغةَ ؟ ألا ترى أنها حِرفةٌ يسهُلُ فِيها الغِشُّ ونجيدُ فيها خَلْطَ الذَّهبِ بِالنُّحاسِ دُونَ أَن يَشعُرَ بفَعْلَتِنَا أَحَدٌ ؟ »

وَوَجَدَتِ الفكرَةُ اعْتِباراً وتقدِيراً عِند الأَخَوينِ ، حتَّى إِذَا ما هَبَطا تلكَ المدينَة ، استأْجَرَا كِيراً وَأشتَغَلَا بِصِياغةِ الذَّهَبِ . وَلكِنَّ تِجارتَهُمَا لم تُصادِفْ رواجًا ونَجاحًا ، وذلك أَن أَهْلَ تِلك المدينةِ لم يَثِقوا تمامَ الوُثُوقِ بتلك البِضاعةِ الزائِفَةِ ، كما أَن هذينِ الاخوينِ اذا مَا باعَا جانباً من



وما ترى لو أننا احترفنا الصياغة ؟

هذه الصِّناعةِ الزَّائفةِ ، كانا يتركان جُلوك يَرقُبُ السكيرَ ، ويذهَبان الى الْحانةِ القريبةِ ليصْرِفَا كلَّ ما جمَعاهُ فى الشَّرابِ دونَ حِسابٍ .

وَأَخذَ مَا عندهما من ذهبٍ يَفْنَى رُوَيْدًا رُوَيْدًا دون أَنْ يشترِيا غيرَه ، حتى لَم يَبقَ مِن ذلكَ التُّراثِ القديِمِ إلا كُوزٌ كبيرٌ كان لِجُلوك هدية من عمٍّ لَهُ ، وكان هذا الكُوزُ عزِيزاً على جُلوك لَا يفْتَرِقُ عنهُ ، وَلم يكُن جُلوك يَشرَبُ فِيه الَّا الماءَ واللَّبنَ .

وكان هذا الكوزُ عتيقاً فى صِياغتِهِ . ذا قبضةٍ كأنَّها خُصْلَتانِ من الشَّعر الذَّهَبِيِّ ، مَا يَظُنُّ الناظرُ

اليها الّا أنها مِن فتائل الحْريرِ لَا مِن سَبيكِ الذَّهَبِ وَتتدلّى هاَتانِ الْخُصْلَتانِ الى مثلِ لِحيةٍ وَشارِبيْنِ تُحيط بِوَجهٍ أَحمرَ دائرٍ ، ذِى عَيْنَيْنِ بَرّاقَتَيْنِ ، لا يكادُ أَحدٌ يَشْرَبُ من هذا الكُوزِ دُون أَن يُمعِنَ فيه النَّظرَ ، ولقدْ جَزَمَ شِڤارتس مرةً أَنه ما كادَ يُفَرِّغُ هذا الكوزَ من نَبيذِ بلادِ الرَّين سبعَ عشْرَةَ مرَّةً حتى لمحَ هاَتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ كأَنَّهما تغمزانِهِ بجُفونِهما .

ولما جاء دَوْرُ هذا الكوز ، لكى يُحِيلَهُ الأَخَوانِ الى مَلاعقَ ، تَحطَّمَ قلبُ جُلوكَ المسكينِ

أَسًى عليهِ ، ولكنَّ ذلك لم يُثِرْ الَّا الضَّحكَ عندَ أخويْهِ ، اللذَيْن رمَيا بِالكوز فى الكِيرِ ، وَذَهبَا الى الْحانَةِ بعد أَنْ تركا جُلوكَ يرْعَى البُودَقَةَ حتى اذا ماذَابَ الذَّهبُ أحاله قُضباناً مُعَدَّةً للطَّرْقِ

وما إِن ذهبَ الأَخوانِ حتَّى تزوَّدَ جُلوكَ بآخر نَظْرَةٍ من صديقِهِ القديمِ وهُو فى البُودَقَةِ وقَد تلاشَتْ خُصَلُ الشَّعرِ ولم يبقَ الَّا أَنفُه الأَحمرُ وتانك العيْنانِ البرَّاقَتانِ التى كانتِ النَّارُ قد زَادتْ نظراتهما شِدَّةً وحِدَّةً

وذهبَ جُلوكَ الى النَّافِذَةِ بعد أَن أَضْجَرَهُ

الْجُلوسُ بِجانبِ النَّار المتَّقِدَةِ ، وَكانتْ تلكَ النَّافذَةُ تُطِلُّ على سَلَاسِلِ الْجبالِ التِي تُحِيطُ بِوَادِي الْـكَنْزِ وكانت أَظهرَهَا جَميعاً تِلكَ الْقِمَّةُ العَاليةُ التِي يَنْحَدِرُ منهَا النهْرُ الذَّهَبِيُّ . وكانَ الوقْتُ مساءً ، ومَا إِنْ حولَ جُلوكَ نظرَهُ الى تلكَ الْجبالِ حتى رأى أَن الشَّمسَ الْغارِبَةَ قَدْ صَبَغَتْ صُخُورَهَا بِصِبْغَةٍ حمراءَ قُرْمُزِيَّةٍ ، وقد انعَكَسَتْ على السُّحُبِ الْمُتَمَاوِجَةِ على رُؤُوسِهَا فَجَعَلَتْهَا كأَنَّها الأَلْسِنةُ النارِيَّةُ . أما النَّهرُ فكان أَكثرَ هَذهِ جَميعاً لَمعَاناً يَتَحَدَّرُ من هـذِهِ الى هذهِ كأنه سَيلٌ من الذَّهب الْخَالص ، قَد عَلَتْهُ هالةٌ

من قَوْسِ قُزَح يَظْهَرُ حِيناً ويَخْتفى حِيناً فِي رَذَاذِ الماء الْمُتَساقِطِ

وَبعْدَ أَن أَدْمنَ جُلوكُ النَّظرَ اليـهِ قالَ لِنفسِهِ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ : « لَوْ أَنَّ هَذا النَّهرَ حقا من الذَّهبِ ، لـكانَ ولا شَكَّ شَيْئاً عجباً ! »

وإِذا بِصَوْتٍ معدِنيٍ يَرِنُّ بِجانِبِ أُذنِه قائلًا :
« كلَّا ! إِنَّهُ لَنْ يَـكونَ ياجُلوكُ ! »

فوَثَبَ جُلوكُ من مكانِهِ مُنادياً « رُحْماكَ يا الله مَنْ هَذا ؟ » . ولـكن ما مِن مُجيبٍ . وأَخذ يَبْحثُ فى أَرجاء الغُرفةِ ، وتحت المِنضَدةِ ، وأَخَذَ

يَتلفَّتُ خلفَهُ مرَّاتٍ عدةً ، عَلَّهُ يَكتشِفُ أحداً فلم يجِدْ . وبعدَ أن كلَّ من الْبحْثِ جلسَ فى مكانِهِ الأَول عند النَّافذةِ .

وفى هذه المرّةِ لم يتكلَّم جُلوك بل أَخذَ يَتَخَيَّلُ كم يَكُونُ جَميلًا لو أَنَّ مِياهَ ذلكَ النَّهْرِ قدِ اسْتَحَالَتْ ذهباً خالصًا ؟

عندئذٍ رَنَّ هذا الصوْتُ أَوْضَحَ من ذِى قَبْلُ :

« لَنْ يكونَ جَميلًا يابُنَيَّ ! »

فَصاح جُلوك : « يالله ، مَن هذَا ؟ »

ثم أَخذَ يَبحَثُ من جَديدٍ عن صَاحبِ هـذا

الصَّوْتِ ، أَخَذَ يَبحثُ فى كلِّ رُكْنٍ من أركانِ الغُرفةِ ، وفى القماطِرِ ، وأَخذَ يَتلفَّتُ خلفَهُ ويَدورُ حَوْلَ نفسِهِ مُعتَقِدًا أَن صاحبَ هـذا الصَّوْتِ واقِفٌ خَلفَه ، ولم يَصْمُتْ حتَّى سَمِعَ الصَّوتَ من جَديدٍ.

ولـكِنَّه فى هذه المرّةِ كانَ يُغنِّى ولا يَتـكلَّمُ يُغنِّى بسرورٍ وَغِبْطةٍ «لَلّ لَلّ لَا . .» نَغَمَةٌ مُتَعاقِبَةٌ كأنَّها صوتُ المغلاةِ على النَّارْ . فَذَهبَ جُلوكُ الى النَّافذَةِ ولـكنَّه تأَكَّدَ أَن الصَّوتَ يَنْبَعثُ من بينِ جُدرانِ الْبَيْتِ ، ثُم أَخَذ يبْحثُ فى الدَّورِ السُّفلِيِّ وفى الدَّورِ العُلوىِّ ، ولـكنَّهُ تيقَّنَ أَنَّ هذا الصَّوْتَ

يَنْبَعِث من تلك الْحجرَةِ ، وقد صارَ أسرعَ نغمةً وأكثرَ وُضوحًا « للّ للّ للا ... »

وَعلى حين فجأةٍ اكتشفَ جُلوك أن الصَّوْتَ أشدُّ وُضوحًا عندَ الكِيرِ ، فجَرى اليهِ وفتَحَ بابَهُ وأرْهَفَ أُذُنَهُ . إنه حقًّا على صوابٍ ، إذ أن ذلك الصوْتَ لم يكنْ مصدرُهُ الكِيرَ فقط ، بل إنه يَنْبَعِثُ مِن البُودَقَةِ ، وَسَرْعانَ ما كشف غِطاء البُودَقَةِ وما كان أشد عَجَبَهُ عند ما تيَقَّنَ أن تلك الْبودَقَةَ تُغَنِّى ! فلَمْ يكنْ منهُ الّا أنْ جرى الى رُكنِ الغُرْفةِ ، وَهْوَ مَبْهُوتٌ فَاغِرُ الفَمَ

حتّى صَمَتَ ذلك الغِناء ، واسْتَحالَ ذلكَ النَّغَمُ الى كلامٍ مَفهومٍ :

— « أهلًا بِكَ ! »

فلمْ يُجِبْ جُلوكـ .

فَصاحتِ البُودَقَةُ ثانِيةً « أهـلًا بِكَ ياابنِي جُلوكـ . . »

فَجَمَعَ جُلوكـ كلَّ مَا فيهِ من شَجاعةٍ وَجُرأةٍ ، وراحَ نَحْوَ البُودَقَةِ وَأَخْرَجَها مِن الـكِيرِ وأَخذَ يُمْعِنُ النظرَ فيها فوجدَ مَا فيها مِنَ الذَّهبِ قد ذَابَ وَصارَ سطحُه أَمْلَسَ كأنه المرآةُ ، ولـكنَّه بَدلًا من

أَنْ يَجِدَ وجْهَهُ مُنْعكِساً على سطحِهاَ ، اذَا به يرى وَجْهَ صديقِهِ القديمِ بِأَنفِهِ وَعُيونِهِ يُحَمْلِقُ اليهِ من خَلْفِ ذلك الذَّهَبِ المُذَاب، وقد صارَ لَوْنُهُ أَكثرَ حُمْرَةً مِن ذى قَبْلُ .

عِندئذٍ رنَّ الصَّوْتُ من الْبُودَقَةِ مرةً أخرى « هَلُمَّ ياابنى جُلوك واسكبنى منَ البودَقةِ . . »

ولكن جُلوك كان مَبْهُوتاً مُشَتَّتَ الفِكْرِ حتَّى إنه لم يتحرَّكْ مِن مكانِهِ .

ورنَّ الصَّوْتُ بِشدَّةٍ « أَلا تَسْمَعُنِى ؟ هَلُمَّ وَاسْكُبْنِى ! »

ولـكن جُلوكُ لم يفتأ في مكانهِ . .

ثُم عاوَدَ الصَّوتُ الكلامَ « أَلَا تَسْمَح فَتَسكُبَنِي من هذهِ الْبُودَقَةِ ؟ إِنَّنِي أَتلَهَّبُ من الْحَرِّ »

عِندَ ذَلِك فقط بَدأَ جُلوكُ يتحرَّكُ ، وَيَكْتَشِفُ من جديدٍ القُدْرَةَ عَلَى اسْتِعْمالِ لِسانِهِ . فاندفَعَ الى الْبُودَقَةِ وَأَمالَهَا لِيَسْكُبَ ما فيها من ذَهَبٍ . وَلَكِنَّهُ بدلًا من أَن يَرَى ذَلِك المعدِنَ الْمُنْصَهِرَ يجْرِى من الْبُودَقَةِ إِذَا بِقَدَمَينِ دَقِيقَتَيْنِ تُطِلَّان من الإِنَاء تَتْبَعُهُمَا سَاقانِ وذيْلُ مِعطفٍ ، ثم ذِراعانِ مَقْبُوضَتانِ ثم رَأْسُ ذلكَ الصَّدِّيقِ القَديمِ . حتى إذا كان ذلكَ رأى جُلوك



إذا بقدمين دقيقتين تطلان . .

قزماً ذَهَبِيًّا لا يَبلُغُ طوله قَدَماً ونِصفَ قدمٍ يَقِفُ أَمامَه على أَرْضِ الغُرْفةِ .

فنظرَ القزْمُ بِابتِسامٍ الى جُلوكَ ثمّ أَخذَ يَمُدُّ ساقَيْهِ أَولًا ثمّ ذِراعيْهِ ثمّ يهُزُّ رأْسَهُ الصّغيرَ كأنّه يُريدُ أَن يَستَوْثِقَ من أَنَّ أَجزاءهُ قد ضُمّت بَعْضُها الى بعضٍ ضماً صَحيحاً . هــذَا بَينَما كان جُلوكَ وَاقفاً وَقدْ عقَدتْ الدَّهشَةُ لِسانَهُ .

وكانَ هــذَا الإِنسانُ الصغيرُ يلبَسُ إِزارًا منْ نسيجِ الذَّهبِ دَقِيقِ الحْبْكِ تتَماوجُ علَيْه الأَلوانُ كأَنَّهُ الصدَفُ ، وعلى هذَا النّسيجِ تتَدَلَّى جدَائِلُ

شَعَرِهِ الطَّوِيلِ مُتَمَوِّجَةً ، حتى إنْ جُلوكْ لَم يميِّزْ أَيْنَ تنتهى ، فكأنَّ أَطرافَهـا كانتْ تذُوبُ فى الهوَاءِ .

بيد أَنَّ وجهَهُ لم يكن يدُلُّ على تِلكَ الدِّقةِ فى الصِّناعةِ ، فكانَتْ مَلامِحُهُ جَامِدَةً ذاتَ سِحنةٍ نُحاسِيَّةٍ ، تُعبِّرُ تَعبِيراً صَحِيحًا عن شَخْصِيَّةِ صَاحِبِها الصَّغِيرِ .

وما إنِ انتَهى القَزْمُ مِن فَحْصِ نَفسِهِ ، حتَّى أَدارَ عينَهُ نحوَ جُلوكْ ، وأَخذَ يُمْعِنُ النَّظَرَ اليْهِ دَقِيقةً أَو اثنَتَيْنِ ثمّ قَالَ لَه « لَا أَظنُّ ذَلك يَاابنى جُلوكْ ! »

ولقدْ كانتْ هـذهِ الملاحَظَةُ المبْتُورةُ صريقةً شاذَّةً لبدْء المحادثةِ ، ولـكنَّهُ رُبما كَان يَقْصِدُ بِهاَ رَبْطَ الْحديثِ بتلكَ الملاحَظَةِ التى أبداها اليه مِن قبـــلُ وَهُوَ فِى البُودَقَةِ . ومَهْمَا يَـكُنْ من الأَمرِ فانَّ جُلوكَ لَمْ يَشَأْ أَنْ يبْحَثَ أَو يُناقِشَ هذه الْمُلاحَظَةَ

فأَجابَ جُلوكَ بِلُطْفٍ ووَدَاعةٍ « أَلَا تظُنُّ ذلك ياسَيِّدِى ؟ »

فقال الْقَزْمُ مُتَمِّمًا حَديثَهُ « لَا ! لَا أَظُنُّ ذَلِكَ » ثمّ أَرخى قَلَنسُوَتَهُ على جَبْهَتِهِ ، وَأَخذَ يَذْرَعُ أَرضَ

الْغُرْفَةِ جَيْأَةً وذُهُوبًا ، وَهو يَرفَعُ ساقَيْهِ عالياً ، ويَضربُ بِها الأَرضَ بِشدَّةٍ .

وهكذا وجَــدَ جُلوك فُرْصَةً لِلتَّفكيرِ ، واسْتِعْراضِ ما مرَّ عليه ، فَوصلَ الى أَنَّ مِنَ الْخطإِ أَن يُظهِرَ الْخوفَ من هذا الزّائرِ الصَّغيرِ ، ثم تغلَّبَ حبُّ الاستِطْلاعِ على جَزَعِهِ فَراح يَبْدَأُ ضَيفَهُ بالسؤالِ قائلا بشىْء من التردُّدِ

« اتسمَحْ لى ياسيِّدى أَن أَسأَلكَ ، أَلسْتَ كُوزى ؟

فما سمِعَ ذلك الرجلُ الصَّغيرُ حتَّى أَدار وجهَهُ ومَشى بِخُطًى وثِيقةٍ الى جُلوك ، وَأَجابهُ وهوَ يرفَعُ

قامَتَهُ الى نِهايتِها :

« إنّنِي مَلِكُ النَّهْرِ الذَّهبِيِّ »

وَما إن انتهَى حتى أَدارَ وَجهَهُ وأَخذَ يَذرَع أَرضَ الْحُجْرَةِ من جديدٍ بِخَطَواتٍ مَديدَةٍ ، كأَنه يُريدُ أَن يُهيِّئَ الفُرصةَ لِسامِعِهِ حتى تَذهبَ عنهُ الدَّهشَةُ من سَماعِهِ تَصريحَهُ الأَخيرَ . وَبعدَ قَليلٍ تَحوَّلَ الى حَيْثُ جُلوك وَوَقَفَ صامِتاً كأَنَّه يَنتظِرُ أَن يَسمعَ تعقيباً على كلامِهِ .

وَكانَ جُلوك قَدْ أَجمعَ على أَن يَسأَلَهُ سؤالًا ما ، مَهْما كلَّفَهُ الأمرُ . وبعدَ قليلٍ قال له :

« أرجو أن تكونَ جَلالَتُكُمْ بِخَيرٍ ! »

وَلكنَّ الضَّيفَ الصَّغيرَ لَم يُحاوِلْ أَن يُجيبَ على سُؤالِ جُلوكَ الرقيقِ المهذَّبِ ، بَل أَخذَ يَقولُ :

« انْتبِهْ الى ما أَقولُ . إِننى أَنا مَلِكُ مَا تَدعُونهُ أيُّها النَّاسُ بالنَّهرِ الذَّهبِيِّ . ولَقدْ سَجنَنِي فِي ذلكَ الكوزِ ـ الذِي خلَّصتَنِي مِن سِحرِهِ ـ مَلِكٌ غَشُومٌ أَشدُّ مِنى قُوَّةً . ولكنّنى لمــا رَأيتُ شَراهَةَ أَخويكَ وسوء فِعلِهِمَا بِكَ دَفَعنِي ذلك لِكَيْ أَكُونَ فِي مَعونَتِكَ . فَانتبِه إِلى مَا أَقُولُهُ لَكَ .

« إِنَّ كلَّ من يَنْجَحُ فِي الصُّعُودِ الى قِمَّةِ هذا

الجبلِ الذى ينبعُ منهُ النهرُ الذَّهَبِيُّ ، ويُلقِي فيهِ بثلاثِ قَطَراتٍ من الماءِ المُقدَّسِ ، فان ماءَ النَّهرِ يستَحيلُ له ـ وله وَحدَهُ ـ ذهباً خالِصاً . ولكن من يَفشَلُ فى مُحاوَلتِهِ الأُولَى فانَّه يَفشَلُ الى الأَبدِ ، ومَن يُلقِى فى النَّهرِ بماءٍ غيرِ مُقدَّسٍ فانه يَستحِيلُ الى صَخرَةٍ سَوداءَ ! »

وَما إِن انتهَى مِن حَدِيثِهِ حتَّى أَدارَ ظَهرَهُ وأَخذَ يَسِيرُ إِلى حَيْثُ المَوْقِدُ وَوَثَبَ فى لَهِيبِهَا المُتَأَجِّجِ . فأَخذَ لَوْنُهُ يَسْتَحِيلُ أَحْمَرَ فَأَبْيَضَ ثمَّ غدَا شَفَّافًا كأَنَّهُ لهيبٌ مِن النُّورِ ثمَّ أَخذَ يَرْقُصُ

حِيناً حتّى تَلَاشَى .

لقدِ اختفَى مَلِكُ النَّهرِ الذَّهَبِيُّ !

فَصَاحَ جُلوك وَهُو يَجْرى إلى الْمَدْخَنَةِ باحِثاً

عَنهُ :

« يَا كُوزِى . . يَا كُوزِى . . يَا كُوزِى العَزِيزَ »

الفصل الثالث

ما كادَ مَلِكُ النهرِ الذهبِيِّ يَختفِى على النَّحوِ الذى جاء ذِكْرُهُ فى الفصل السَّابِقِ ، حتَّى دخلَ هانز وشِفارتس يَصِيحانِ وَيَضِجَّانِ من السُّكرِ .

ولكنهُما عند ما اكتَشفَا أَن ما تَبَقَّى لَدَيْهِمَا من ثَروةٍ قد ضَاع ، جُنَّ جُنُونُهُمَا وَطارَ السُّكْرُ مِن رَأْسَيْهِمَا ، وَأَنْهَالَا على جُلوكٍ الصغيرِ ضَرْبًا ولكْمًا ، ولم يتْرُكاهُ الَّا بَعدَ أَن كلَّتْ أَذْرِعَتُهُمَا

فارْتَمَيا على مَقْعَدَيْنِ حَوْلَهُ يَستريحانِ من نَصَبِ اللَّكْمِ والضَّرْبِ ، ويَسأَلانهِ عمَّا يُريدُ أَن يَقولَ لِتبرِئَةِ نَفسهِ .

ولم يَكن مِن جُلوك الا أَن رَوَى لَهُمَا قِصَّتَهُ مِن جَديدٍ ، ولكنَّهما لم يُصَدِّقَا مِنها حرفاً واحداً . بَلْ زادتْهُمَا حنَقاً عليهِ فقامَا يَضرِبَانه بأَشَدَّ مِن ذِي قَبْلُ حتَّى هبَطَتْ قُواهُما وذَهَبَا لِلنَوْمِ .

وَجاءَ الصَّبَاحُ ، وَجَاءَا مِنْ جَدِيدٍ يَسأَلانِ جُلوك الذى لم يَحِدْ عَن ذِكْرِ ما رواهُ لَهمَا من قَبْلُ ، حتَّى ولَّدَ فِيهمَا إِصْرارُهُ ثِقَةً بكلامِهِ .

وَبعدَ أَن تداوَلا فِي حَلٍّ هذه المسألَةِ العَجيبةِ هُنَيْهَةً ، اختلفَا فِيمنْ يُجَرِّبُ حَظَّه أَوَّلا ، حتى جرَّهُما الْخلفُ الى القِتالِ ، فَجرَّدَ كلٌّ منهما سَيْفَهُ في وَجْهِ أَخيهِ . وكان القِتالُ عنِيفاً أَثارخَوْفَ الجِيرانِ وفزَعَهُم، فلَمَّا عجزُوا عن التوسُّطِ بَينهُما لَمْ يَجِدُوا بُدًّا من الاستِعَانةِ بِرجالِ الشُرَطِ .

وما كادَ يَسمَعُ هانز ذلك حتى هرَبَ واختفَى ، واقتيدَ شِفارتس الى المَخْفَرِ حيثُ قُضِيَ عليهِ بغرامةٍ يَدفَعُها ، ولما كان مُفلِساً لأنه أنفقَ آخِرَ دِرهمٍ معهُ في الليْلَةِ السَّابِقَةِ ، أُرْسِلَ الى السِّجنِ الى أن يَدفَعَ



فجرد كل منهما سيفه فى وجه أخيه

ما قُضِيَ عليه به .

ولما سَمِعَ هانز ما جرى لأخيهِ سُرَّ سُرُوراً كبيراً وقرَّرَ أَن يَشُدَّ رحالَهُ الى النَّهْرِ الذَّهبِيِّ من فَوْرِهِ . ولكنْ أَنَّى لهُ بالماءِ المُقدَّسِ ؟ ذهبَ الى الكاهِنِ فمنعَهُ إِيَّاهُ ، لذلك لم يَجِدْ بُدًّا من أَنْ يَذهَبَ خِلسَةً إِلَى المَعْبَدِ ويَسرِقَ قدحاً منه دونَ أَن يَشعُرَ بِهِ أَحدٌ ، فرجعَ بذلك الى البيتِ فَرِحًا جَذْلَانَ .

وما إِنْ أَسْفَرَ الصَّباحُ ، حتى هَبَّ هانز ، ولم تَشْرُقِ الشمسُ بَعْدُ ، وَوَضَعَ الماءَ المقدَّسَ فى قِنِّينةٍ ،

وَحَمَلَ معهُ زُجاجَتَينِ من النَّبيذِ وشيئاً من اللَّحمِ في سَلَّةٍ، ثمّ حملَ عَصاهُ الْجَبَلِيَّةَ ، وخرجَ الى حَيثُ الْجبالُ .

وكانَ على هانز أن يَمُرَّ في طَرِيقِهِ على السِّجنِ ، وما كَادَ يَلْتفِتُ الى نَاحِيَتِهِ ، حتى وَجدَ وَجْهاً يُطِلُّ من خَلْفِ قُضْبانِ النَّافِذَةِ ، وكان ذلكَ وَجهَ شفارتس وقدِ ارْتَسَمَتْ عليـــه علاماتُ الْحُزْنِ والإِعياء فنظرَ اليهِ هانز وقال: « صباحَ الْخيرِ يا أَخى ، أَلَا مِن رِسالةٍ أَحملها إِلى مَلِكِ النَّهرِ الذَّهَبِيِّ ؟ »

فأَثارَ هذَا التَّهَكُّمُ سَخِيمَةَ شفارتس ، وَامْتَعَضَ وجههُ غضباً ، وأَخَذَ يهزُّ قُضْبانَ نافِذَةِ السِّجنِ بكلّ

ما تبَقَّى لهُ من قُوَّةٍ. فلم يَكُنْ من هانز إلا أن استَرْسَلَ فى تهكُّمِهِ وضَحِكِهِ، ناصِحاً اياَّهُ أَنْ يأخُذَ من الرَّاحةِ بنَصِيبٍ وَافرٍ الى أن يَعودَ اليهِ. ثمَّ احْتقبَ سَلَّتَه وهزَّ زُجاجَةَ الماء المقدَّسِ فى وَجهِ أَخيهِ، وسارَ بخُطَواتٍ عَنِيفة، يَحْدُوهُ الأملُ والطمعُ.

وكانَ الصباحُ بَدِيعاً، يُدْخِلُ السَّعادَةَ والهناء الى قَلْبِ كل إنسانٍ، وَلَوْ لَمْ يكُنْ يبْحَثُ عن نَهْرٍ ذَهبِيٍّ لِيغتَرفَ منهُ. وكانَ الضَّبابُ المنّدى يَغْمُرُ الوادى ولَا يكادُ السَّائرُ يَرَى قُنَنَ الجِبالِ الواطِئَةِ وَقد بَرزَتْ من ثَنايَا هذا البحْرِ المائِجِ من السَّحابِ



ثم احتقب سلته وهز زجاجة الماء المقدس فى وجه أخيه

اللَّهُمَّ الَّا رُؤُوسَهَا العاليَةَ ، التِي قدِ انْعكَسَتْ على صُخُورِهَا أشعةُ الشَّمسِ فكَستها لونًا وَرديًّا ، فجعلَتْها رَهِيبَةً كأنَّهَا هيا كلُ الْمَرَدَةِ . وَهُنَا وَهُنَاكَ كنتَ تَرى جَدَاوِلَ الثَّلجِ الْمُنْحَدِرَةِ ، وقد بَدَتْ لَامِعَةً كأنَّهَا لمحاتُ البرقِ الْخَلَّابِ . وفَوقَ هذه الْجبالِ وفَوقَ السُّحُبِ والضَّبابِ الْمُتراكِمِ ، وَفى قَلْبِ السَّماءِ الزَّرْقاءِ الصافيةِ ، كُنْتَ تَرى أَضرافَ هذِهِ الْجِبالِ البَعيدَةِ مَكْسُوَّةً بالثَّلْجِ الأَبْدِى .

وَكانَ النهرُ الذَّهبيُّ الذى يَنْبَعُ من بعضِ هذه المرتَفِعَاتِ الواطِئَةِ ، لا تكادُ العينُ تَتَبَيَّنُ مَجْرَاهُ ،

الَا من رَذَاذِ الماءِ المتَصاعِدِ فى جَوِّ شلّالاتِهِ الْعُلْيا .

وَفى هَـذه الناحيةِ ، وفى هذه الناحيةِ وحدها حَصَرَ هانز كلَّ تفكيرِهِ، وجَمعَ كُلَّ ارادتِهِ ، مُتناسياً كلَّ مَا يَثنيهِ عن عزيمتِهِ ، من مسافاتٍ شاسِعَةٍ عليهِ أَنْ يَقطعَهَا ، ومِن صُخورٍ عليهِ أن يتَسَلَّقَهَا ، حتَّى إِنَّهُ سارَ بِخُطًى عَجْلَى سَرْعانَ ما أَجْهَدَتْهُ ، وهوَ لم يَتَعدَّ بعدُ السُّفُوحَ الْخَضْراءَ .

وما كانَ أَشَدَّ عجَبَ هانز ، حينَ وَجَدَ الثُّلوجَ الْمُتَرَاكِمَةَ فى طريقِهِ الى حَيثُ النهرُ الذَّهبيُّ ، ومَعَ مَعرِفَتِهِ الوَكِيدَةِ بتَسَلُّقِ الْجِبالِ وبالسَّيْرِ عَلَى

الثُّلُوجِ ، فَإِنَّهُ لم يُصادِفْ فِي حيـاتِهِ مكانًا أَشدَّ خطراً من هذه الثلوجِ الْمُتَرَاكِمَةِ . وَمِن كلِّ رُكْنٍ كانتِ المياهُ السَّائلةُ تُحْدِثُ أصواتًا مُزْعِجَةً غَرِيبةً ، فَحِيناً كانتِ الأَصواتُ مُرْتَفِعَةً بِنَغَمَاتٍ مُخِيفَةٍ ، وحيناً كانتْ وَاطِئَةً مُتَقَطِّعةً كأَنَّها أَصواتُ إِنسَانيَّةٍ مُعَذَّبةٍ .

وَكانتِ الثُّلوجُ المُتَكسِّرَةُ مُخِيفةً فِي مَنظَرِهَا ، لَم تَقَعْ عينُ هانز على مِثْلِهَا ، فكانتْ تَبْدُوله كأنَّها أَجْسامٌ إِنسانيَّةٌ ، وكانَ الضَّبابُ مُرْعِباً يُثيرُ الخوفَ فى نَفسِ المسافرِ . وأَخذتْ أُذنَا هانز تَثقُلُ

عليه ، وَأخذ رَأسُهُ يتصدَّعُ من أصواتِ المياه المُزعجةِ المُخيفةِ .

وكُلّما سارَ خُطوةً كانتْ هذه المناظِرُ تَزْدادُ فَظاعَةً ، وَالمصاعِبُ شدّةً ، حتى امْتَلأَ قلبُهُ هلعاً ويأساً وَما كادَ يأتى على نِهايةِ هذه الثُّلوجِ حتّى جلسَ على حافَةِ الصَّخرِ وقَدْ هدَّهُ التَّعبُ والخوفُ ، ولم يَجِدْ ما يُرْوِى ظَمَأَهُ الا قِطعةً من الثَّلْجِ ، بعْدَ أنْ تركَ سَلَّةَ الطَّعامِ خلفهُ ، وقَدْ أَثْقَلَتْ كَتِفَهُ من حَمْلِهَا . وبَعْدَ أنِ اسْتَراحَ ساعةً كامِلَةً ، استَعادَ بعضَ قُوَّتِهِ وقَامَ من جَدِيدٍ يُواصلُ رِحلتَهُ ،

يَدفَعُهُ الطَّمعُ والْجَشَعُ .

* * *

صارتِ الأَرْضُ أَكْثَرَ سُهُولَةً ، ولكِنَّها كانَتْ صَخْرِيَّةً جامِدةً ، دون أيِّ نَباتٍ يَجعلُ السَّيْرَ عليها بِقَدَمَيْه لِيِّناً مُرِيحًا ، وَدُونَ أية شَجَرَةٍ يَستظِلُّ تَحتَها منْ أَشعةِ الشَّمْسِ التى أُضحت لا تُطاقُ ، بَعْدَ أَن أَنتصَفَ النَّهارُ ، وَكانَ الْهواء لافِحًا . فأَثارَ كلُّ هذا غُلَّةَ هانز ، وَصارَ لا يَقْوَى على السَّيْرِ الْمُجْهِدِ . وأَخذَ يَنظُرُ الى زُجَاجَةِ الماءِ الْمُعلَّقةِ فى نِطاقِهِ وهو يُفكِّرُ :

— « ثَلَاثُ قطرات تَـكْفى ، ثلاثُ قطرات فَقَطْ .. لِمَ لَا أَبُل شَفَتِي وأُنقِعُ غُلَّتى ببَعضِ هذا الماءِ . . . ؟ »

فَفتَحَ الزُّجَاجَةَ ، ولـكِنَّهُ ما كادَ يَضَعُها على شَفَتَيْهِ حتى لَمحتْ عَيْناهُ شيئاً مُلقًى على جانِب الطَّرِيقِ ، إِنَّهُ يتحرَّكُ ، نعم لَقَدْ كانَ كلباً صغيراً لعلَّه فى آخرِ دَقيقةٍ من حيـاتِهِ قَد قتلَهُ العطشُ فكان لِسَانُهُ مُتَدَلِّياً ، وَأَطْرَافُهُ مُتَهدِّلَةً ، وقَدْ تجَمَّعَتْ على شَفَتَيْهِ أَسْرابٌ من النَّملِ الْأَسْوَدِ .

وكانَتْ عَيْناهُ جَاحِظَتَيْنِ الى حَيْثُ زُجَاجَةُ



وجلس على حافة الصخر وقد هده التعب والخوف

الماءِ التى أمْسَكَها هانز بيدَيْهِ ، وَرَفَعَهَا الى شَفَتَيْهِ وَتَجرّعَ مِنْهَا جَانِباً ، ثُمَّ رَكَلَ الكلْبَ المِسْكِينَ بِقَدَمِهِ ، وسَارَ فى طَرِيقِهِ . ولكنَّهُ أَحَسَّ حِينَذاكَ — دُونَ أَنْ يعْرِفَ لذلِك سَبَباً — أَنَّ ظِلّا غريباً قدِ ارتفعَ أَمامَ عينيهِ فى الفضاءِ الازرقِ :

ثمَّ صَارَ الطَّريقُ أَقْسَى من ذِى قَبْلُ ، وصارَ الهواءُ مُقبِضًا يَهِيجُ الأَعصابَ ، وَاستَحالَتْ أَصْواتُ المِياهِ المتدفِّقةِ الى أَصواتِ سُخْرِيَةٍ وهُزْءٍ . ثُمَّ أَخَذَ العطَشُ يشتدُّ بَعدَ كلِّ خَطوةٍ يَخْطُوها .

ومرَّتْ ساعَةٌ وهو كذلكَ ، ثم نظَرَ الى زجاجةِ

الماءِ التي في نطاقه فوجدَ نصفَها قد فرغَ ، ولكن ما زالَ بها أكثرُ من ثلاثِ قَطَراتٍ . فوقف ورَفعَ الزُّجاجَةَ الى شَفتَيْهِ ، وما كادَ يفعلُ حتى أَحسَّ بشيء يتحرَّكُ حواليهِ ، فنظرَ فوجد طِفلًا صغيراً مُلقى على الصَّخرِ يُنازعُ الْحياةَ ، يَخْفُقُ صدرُهُ من شِدَّةِ العَطشِ ، وقَدْ أَسْبَلَ جُفُونَهُ وَتَقَلَّصتْ شَفتَاهُ وجفَّتَا .

نَظرَ اليه هانز بتُؤَدَةٍ ، وَرفَعَ الزُّجَاجَةَ الى فَمِهِ وشَرِبَ وسارَ في طَرِيقِهِ . وفي ذلك الحِيْنِ شاهَدَ سحابةً سوداء غطَّتْ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ ، وظِلَالًا أَشبهَ بالْحيَّاتِ

تزحفُ على سفوحِ الجبالِ .

وكانَ هانز يجاهدُ السَّيْرَ جهادًا ، ومع أنَّ الشمسَ قدْ بدأتْ تنحدِرُ الى الغُرُوبِ الَّا أنها لم ترفِّهْ عنهُ ، فكانَ الهواءُ ثقيلًا يلفَحُ جَبْهَتَهُ . لكِنْ صارَ الهدَفُ قريباً ، فهاهُوَ النهرُ الذَّهبِيُّ يتدفَّق فَوق رأسِهِ ، لذلكَ تغَلَّبَ على ضعفهِ وَوَثَبَ من جديدٍ لِكَيْ يأتى على بَقِيَّةِ رِحْلتِهِ .

وفى تلكَ اللَّحظةِ سَمِعَ صُراخًا خَافِتاً فَتلفَّتَ الى حيثُ الصَّوْتُ فوجدَ شيخاً قدِ ابْيَضَّتْ شُعُورُهُ مُتَمَدِّدًا على الصَّخرِ . وَقدِ اصْفرَّ وجهُهُ وغَارَتْ عيناهُ

وكانَ يدلُّ بِنظَرِهِ على اليأسِ القاتِلِ . فمَا كادَ يرى هانز حتى مدَّ ذِراعَهُ وهو يَصيحُ بصوتٍ مُتَحَشْرِجٍ « أُريدُ ماءً . . ماءً . . إِنى أموتُ . . »

فأجابَ هانز « ليْس لدىَّ منهُ شئٌ . . إِنَّكَ قد أخذتَ نَصِيبَكَ من الْحياةِ . . » وسارَ فى طرِيقه .

وفِى تلكَ اللَّحظةِ لمَعَ البرْقُ ثلاثاً كأنَّه السيفُ المسلولُ فأضاء السماء ثَلاثَ مرَّاتٍ ، وتركهَا غارقةً فى الْعَتَمةِ .

وكانتِ الشَّمسُ ، وهى غائِبَةٌ ، كأنَّها كُرَةٌ حمراءُ مُتَوَهِّجَةٌ فى فَضاءِ الأُفُقِ .

وهاهو هانز قد وَصَلَ الى الهوَّةِ التى يَنْسابُ مِنْها النهْرُ الذَّهبِيُّ ، الذِى كَسَتْ أَمواجَهُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ الْغَارِبَةِ ، فَصارَتْ كأَنَّها أَلْسِنَةٌ من النَّارِ ، وَاستحالَ زَبَدُهُ الى تَوَهُّجَاتٍ داميـةٍ . وأَصبَحَتْ أَصواتُ مِياهِهِ المتَدفِّقَةِ قَوِيَّةً نفَّاذة كأَنَّها الرَّعْدُ حتَّى أَنَّ حواسَّ هانز قَدْ تَلبَّدَتْ ، وأَصبَحَ فى شِبْهِ غَيْبُوبَةِ الْحُمَّى .

وقَفَ هانز على ضفَّةِ النَّهرِ وَفكَّ الزُّجَاجَةَ من نِطاقِهِ ، ثُمَّ قَذَفَ بِهَا الى قَلْبِ الماء . وَلـكِنَّهُ ما كادَ يَفعَلُ ذلكَ حتَّى عَرَتْهُ رِعْشَةٌ ثَلَّجَتْ أَطرَافَهُ ،



ثم قذف بها الى قلب الماء

وَجَعَلَتْهُ يهتزُّ فى مكانِهِ ، ويَصيحُ ، وَيَسْقُطُ . .

وَمَا أَسرعَ أنِ اُخْتَفَى فى ذَلكَ الماءِ الْمُزبِدِ الذِى غَمَرَهُ وَغَمَرَ صُرَاخَهُ . وَأَخذَ هَدِيرُ النَّهرِ الْحَزِينِ يَرْتَفِعُ ، وَأَخَذَ اللَّيـلُ يَسْدِلُ سُتُورَهُ على ذلكَ المكانِ .



الفصل الرابع

أَخَذ جُلوكُ المسكينُ ينتظرُ عودةَ هانز بفارغ الصَّبر ، وأَحسَّ بأَلم شديد لِغَيْبَتِهِ ، ولما لم يَجِدْ فائدةً من الانتظارِ ، ذهبَ الى شِڤارتس فى السجنِ وأَخبره بالقِصَّةِ .

وكان فرَحُ شِڤارتس بذلك عظيما ، لأَنَّه تيقَّن أَن هانز قدْ أَصابتْه لعنةُ مِلِكِ النَّهر الذَّهبِيِّ فتحوَّل الى حَجرٍ أَسْودَ ، فصارت لديْه الفُرصةُ سانحةً

لـكَىْ يأْخُذَ لِنفسِهِ الذّهبَ كلَّه دون أَن يقتسِمهُ معهُ أَحَدٌ .

ولـكنَّ جُلوك كان حَزيناً مَهْمُوماً عند ما فكَّرَ فى ذلك ، وأخذَ يَبْـكِى طُولَ ليلِهِ .

ولما أَصبحَ الصَّباحُ ، لم يجِدْ جُلوك لُقمةً فِى الْبَيْتِ يأ كُلُها ولم يجِدْ دِرْهماً وَاحِدًا . لذلك لم يرَ الّا أَن يذهَبَ ويُؤَجِّرَ نفسَه عند أَحدِ الصاَّغة ، وَأَخذَ يعملُ بجِدٍ كلَّ يومٍ ، ويعملُ بمهَارَةٍ ودقَّةٍ حتّى جمَعَ قدرا كافياً من المال ، ذهَبَ به الى السِّجن وأَعطاهُ جميعَه الى شِقارتس، فبذلك خلَّصه من السجن



ذهب به الى السجن وأعطاه جميعه الى شفارتس

وكم كان سرور شِڤارتس بخُروجه من السِّجن عظيما لأنه أجمعَ الرأىَ على أَن يذهَبَ لِيغتَرِفَ من ذهبِ ذلكَ النَّهرِ . ولـكنَّ جُلوكْ استعطفه أَن يُغيِّرَ من عَزمِهِ ، وأَن يذهبَ للبحثِ عن هانز

ولما علِمَ شِڤارتس أَن هانز قد سرَق الماءَ المقدَّس فـكر أَن هذا مما لا يرضاهُ ملِكُ النَّهرِ الذَّهبِيُّ ، لذلك أَخذَ شيئاً من مال جُلوكْ ، وذهبَ الى كاهن شِرِّير وابتاعَ منه شيَئاً مِنْ ذلكَ المـاء ، وظنَّ أَنَّ ذلك مماَّ يُرضِى ملِك النهر الذَّهبِيِّ .

واستيقَظَ شِڤارتس فى الصَّباحِ البا كرِ ، قبلَ أَن

تشرقَ الشَّمسُ ، حاملًا شيئًا من النَّبيذِ والْخُبْزِ وزُجَاجَةً بِها الماءِ المقدَّسُ ، وسارَ الى حيثُ الجِبالُ . ولم يكُنْ شِفارتس أقلَّ حَيْرَةً من هانز عندما أراد أَن يعبُرَ مَنطِقَةَ الثَّلجِ ، بعد أَن خلَّفَ وراءهُ سَلَّةَ الطّعام .

وَلم يكنِ اليومُ مُغيَّمًا بالسَّحابِ ، يَبْدَأُ أنهُ كانَ ثقِيلًا وكانَتِ التِّلَالُ قَبِيحَةً مُعْتِمَةً . وعندما وصلَ الى تِلك المنطِقَةِ الْحَجَرِيَّةِ ، بدَأَ يشعُرُ بالعطَش ، ولكنَّهُ ما كادَ يرفَعُ زُجاجةَ الماءِ الى شَفَتَيْهِ ، حتّى وَقعَ بَصرُه على ذلك الطفلِ ، مُلقًى على

الاحجارِ ، وهو يطلب منه قَطرةَ ماءٍ

فنظر اليهِ شِڤارتس وقال « يُريدُ ماءً ؟ . وليس لدىَّ نصفُ ما يكفينى ! » . ثم سار فى طريقهِ . فشعرَ حينذاك بأنَّ أَشعةَ الشَّمسِ قد صَارتْ باهِتَةً وأن سحَابةً سوداءَ قدِ ارْتفعتْ من الغربِ .

ثم سارَ ساعةً أُخرى ، وبدأَ العطشُ يفْرى صدرَه ، ولم يَجِدْ بُدًّا من أَنْ يبلل ريقَهُ بشىءٍ من الماءِ ، ولـكنّه ما كادَ يفعلُ حتى رأَى ذلك الشيخَ مُلقًى فى طريقِهِ فسأله شيئاً من الماءِ

فنظرَ اليه شِڤارتس وقال « يريد ماءً ؟ ليس

لدىَ نِصفُ ما يَكفِينى . » ثم سارَ فى صريقِه .

ثم تَصَوَّرَ من جَديدٍ أنَّ أشعَّةَ الشَّمْسِ قد أَخذت تبهتُ ، وكأنه يرى ضَباباً دَمَوِيًّا قانياً يُغطّى وجهَ الشمسِ ، وأَن تِلك السَّحابَةَ السَّوداء قد ارتفعتْ فى الفضاء مضطربة كأنها بحر غاضبٌ ، وهى تعكِسُ ظِلالًا طويلَةً فى طريقه .

ثم ارتقى ساعةً أُخرى ، وَبَدَأَ يَشعُرُ من جديدٍ بالعطشِ ، ولـكنه ما كادَ يرفَعُ زُجاجة المـاء الى شَفَتَيْهِ حتّى تَصَوَّرَ أنهُ يَرى أَخاه هانز ملقى على الارض قد هدَّه التعبُ ، واذا به يمُدُّ ذِراعَهُ اليه يطلُب ماء

فضحِكَ شِفارتس سُخرِيَةً وقال له :

« أأنتَ هُناكَ ؟ تذكَّرْ قُضبانَ السِّجنِ يافتاى العزيزَ . تُريدُ ماءً ؟ هاها . أَتظنُّ أَنّى أَحمِل هـذا الماء لأَجلك ؟ »

ثم سار فى طريقه . بيد أَن شِفارتس عندما تَخطَّاه ، تصوَّر أنه لَمَحَ ابتسامةً تهكميّةً على شفتيْهِ الذَّابِلتَيْنِ ولـكنه ما كاد يسير بضع أَقدامٍ حتّى تلفّت الى الوراء فلم يجده فى مكانه .

وشعَرَ هانز حينَذاك بأَن خوفاً مُهلِـكًا قد حَطَّ على أَكتافه ، لم يعرف له سبباً .

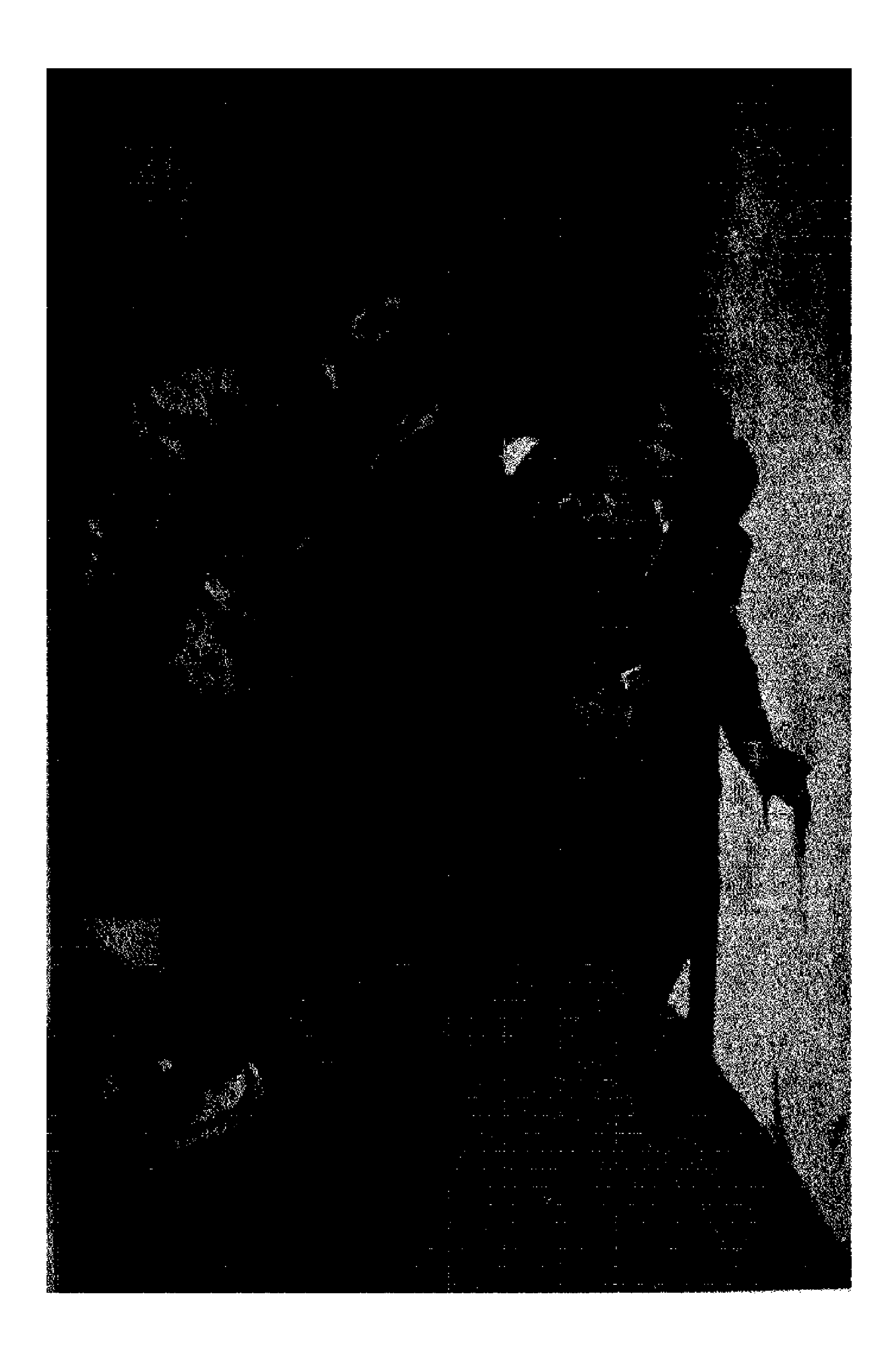


وشعر هانز حينذاك بأن خوفا مهلكا قد حط على أكتافه

غَيْرَ أَن شهوةَ الذَّهبِ التى تغْلِى فى صَدْرِهِ، قد تغلَّبتْ على تعبِهِ وخوفِهِ ، فانطَلقَ جادًّا فى السير .

ثم نظر فاذا بتلكَ السحابَةِ السَّوداءِ قَدْ ارتَفَعَتْ الى عنان السماء ، وكأنّ برقًا خاطفاً يتألَّق منها ، وكأنَّ أمواجا سوداء تتقاذَفُ فى الفضاءِ السحيق. وهُنالك فى الغربِ حيثُ الشمسُ قد بدأت تَغيبُ كُنْتَ تَرَى بُحَيْرَةً حمراء كأنَّها من الدَّمِ . ثم هبَّتْ رِيحٌ عاتِيَةٌ مَزَّقَتْ تلكَ السُّحُبَ الحمراء ودفعتها الى الظلامِ البعيدِ .

وعندما وصلَ شِڤارتس الى ضَفَّةِ النهرِ الذَّهبِيِّ



كانَتْ أَمْواجُهُ سوداءَ كأنها السُّحُبُ القاتِمَةُ ، ولكنَّ زَبَدَهُ كان يُشبِهُ اللَّهبَ ، وما كادَ يُلقِي بِزُجاجَةِ الماءِ فيهِ حتّى كانتْ أَصواتُ الماءِ وأَصواتُ الرّعدِ تَقصِفُ في المكانِ ، وحتّى كانَ البرقُ يخطَفُ بَصرَه ، والأَرضُ تغوصُ تحْتَ قدميْهِ ؛ والمِياهُ تُغطي على صوتِ استِغاثَتِهِ .

وأَخذَ هديرُ النَّهرِ يَرْتَفِعُ ويشتدُّ كلَّما تقدَّمَ اللَّيلُ وهوَ يلتَطِمُ
بالصَّخْرَتيْنِ السوداوَيْنِ

الفصل الخامس

ولما وَجد جُلوك أَن شِفارتس لم يرجع ، غُمَّ لذلك غمًّا كثيراً ، ولم يعرِفْ ماذا يصنَعُ .

ولما لم يَكن لَديهِ شيْءٌ من المالِ ، اضطُرَّ الى أن يَذهَبَ الى ذلك الصائِغِ ويستأجِرَ نفسَه مرة أُخرى . واشتغلَ عنده طويلًا حتّى جمعَ صُبابةً من المالِ .

وبعد أَن قضى جُلوك على هذا النحوِ شهراً

أَو اثنينِ سَمَّ هــذه الْحياةَ ، وأَجمعَ رأْيَه على أن يذهبَ ليُجرِّبَ حظَّهُ عِنـد النَّهر الذَّهـبِيِّ ، وهو يُشَجِّعُ نفسه بقوله : « إِنَّ ذلك الملِكَ الصغيرَ كان عَطوفاً رحيماً بى ، وما أَظُنُّ أَنه يقسُو علىَّ فيُحِيلُنى الى صَخرةٍ سوداء »

وهكذا ذهب جُلوكـ الى الـكاهن حيث أَعطاه شيئاً من المـاء المقدَّسِ ، ثم حملَ شيئاً من الْخُبْزِ فى سَلَّةٍ ، وسار من الصَّباحِ البا كِرِ الى حيثُ الْجبالُ .

واذا كان ذلكَ الثلجُ قَد أَجهدَ أَخوَيْه من

قبلُ ، فإن الجَهْدَ الذى أصابَ جُلوكَ الصَّغيرَ أَضعافَ أَضعافِ ما أَصابَ أَخَوَيْهِ ، فجلوكَ لم يكن بالعارف بِتَسَلُّقِ الجِبالِ مِثلَهُما ، وما هوَ فى قُوَّتِهِما وبأْسِهِماَ ، فكم من مرَّةٍ سَقَطَ وهوَ فى طريقِهِ حتَّى فقدَ سَلَّةَ خُبْزِهِ ، وَكَمْ أَزْعَجَتْهُ تلكَ الأَصواتُ الغَريبَةُ ، ولكن فى النهايَةِ عَبَرَ تلكَ الثُّلوجَ وَجلس وَاهِيَ القُوَى ليستريحَ .

فما استراح قليلًا حتى أَخذ يَرْتَقِي ذلكَ التلَّ ، وقدْ بَدأَ الهجيرُ واشتدَّ الحرُّ ، وبعدَ ساعةٍ أَخذَ العطَشُ منه كلَّ مأْخَذٍ ، ولم يجِدْ بُدًّا من أن يبُلَّ

أوَامَهُ من زُجاجةِ المـــاء ، ولـكنه ـ كما حدث لِأَخوَيه ـ ما كاد يفعل حتى رأى شيخاً ضعيفاً يتوكّأُ عَلَى عَصاهُ وهو يَنحدِرُ اليهِ من رأْس التَّلِّ

« إِننى تَعِبٌ يابُنَىَّ ومُجهَدٌ منَ العطش أَلاَ من جرعة ماءٍ؟ »

ولما وجده جُلوك كذلك لم يَسعْهُ الا أَن يُقدمَ له زجاجة الماء ، راجياً إِيَّاهُ أَلاَّ يتجرَّعَ كل ما فيها .

ولـكنَّ ذلك الشيخَ لم يكتفِ بالقليل اذ أَرجعَ اليه الزُّجاجةَ وقد فرغَ ثلثاها . غيرَ أَنه دَعا له برحلةٍ مُوَفقَّةٍ . وسار جُلوك فى طريقه فَشَعرَ بأَنَّهُ قد أَصبحَ

سهلاً مُعَبَّدًا تحت قدميه ، وسَرْعانَ ما نبتَتْ حوله بعضُ الْحشائش ورأى الفَراشَ يَحُطُّ عليها .

ثم سار ساعةً ، وبدأَ العطشُ يستولى عليهِ ويضطرُّه الى أَن يفكر فى بَلِّ شفتَيهِ بالماءِ ، ولكنَّه ما كادَ يرفعُ الزُّجاجةَ الى فَمِهِ حتَّى رأَى طِفلًا ملقى على الأَرض وهو يصيح يطلب ماءً .

فأَخذَ جُلوكُ يُجاهِدُ نفسَهُ جِهادًا ، حتى استقرَّ عزمُه على أَن يَحتَمِلَ العطَشَ قليلًا فَيُنْجِدَ ذلكَ الطِّفلَ ، فوضعَ زجاجةَ الماءِ على فَمِهِ الصغيرِ ، فتَجَرَّعَ ما فيها الّا قَطراتٍ قليلة . ثم جرى باَسماً الى أَسفَلِ



فتجرع مافيها الا قطرات قليلة

التَّلِّ ، وأَخذَ جُلوك يرعاهُ حتَّى صارَ فى حجمِ النجمةِ البعيدةِ

عاوَدَ جُلوك الارْتقاء وما أشدَّ عجبَهُ عندما شاهدَ حَواليْه كُلَّ صُنوفِ الزُّهورِ وقد يَنَعَتْ ورفعتْ رأْسَهاَ ، وأَلوانَ الفَراشِ وهىَ تَحُطُّ فى كلِّ مكانٍ فَشعَرَ بِسعادةٍ وهناءٍ .

وما إِن سارَ جُلوك ساعةً ، حتَّى أُصبحَ عَطَشُهُ لَا يُحتَملُ ، فتَفَقَّدَ زُجاجتَهُ فلم يَجِدْ بِها الّا قَطراتٍ معدودةً ، فلم يَقدِرْ على مسِّها ، بيد أَنه عِندما كَانَ يُرجعُ الزُّجاجةَ الى نِطاقِهِ ، وَقعَ بصرُه عَلَى ذلكَ

الـكلْبِ الذِى مرَّ به هانز ، وهُو يَلهَثُ عَطشاً .

فوقف جُلوكْ ونظر اليه هُنيْهَةً ثُم الى النَّهرِ الذَّهبِيِّ الذى لا يَبْعُدُ عنـه كثيراً ، وتذكَّر قولَ الملِكِ الصَّغير « إِن من يفشَلُ فى مُحاولَته الأُولى يفشَلُ الى الأبدِ » . وحاول أَن يذهَبَ ويتركَ الـكلبَ حيثُ هو ، ولـكن هـــذا أَخذَ ينبَحُ بصوْتٍ خافتٍ ، استرعى شفقة جُلوكْ ، فوقَفَ ونظرَ اليهِ :

« يَالهُ مِن حيوانٍ مِسْكينٍ ! إنه لا شكَّ يموتُ اذا تركتُه حتى أرجعَ . »

ثم اقتربَ منهُ أَكثَرَ من ذِى قبلُ ، وأَخذ

الكلبُ يُحدقُ اليه النظرَ بذِلَّةٍ وانكِسارٍ ، حتى لمْ يَعُد يُطيقُ رؤياه فى مِحنتِهِ ، وثارتْ ثائرةُ الرّحمةِ فى قلبهِ ففتح الزُّجاجةَ وصبَّ القطراتِ الباقيةَ فى فمِ الكلبِ وَهوَ يُتَمْتِمُ : « قُبِّحَ الملكُ وقُبِّحَ ذهبُهُ .. »

فوقَفَ الكلبُ على ساقَيْهِ الأخيرَتيْنِ . وأخفَى ذَنَبَه ، وأَخذتْ أُذُناهُ تَطولُ وتطُولُ وتَستحيلُ حريريّةً ثمَّ ذَهبيّةً ، وأَصْبحَ أَنفُهُ أَحْمرَ ! وأَخذَتْ عَيْناهُ تُومِضُ بحِدَّةٍ . وفى لحْظَةٍ اختفى الكلبُ ، واذا بذلك الصديق القَديمِ « مَلِكِ النَّهرِ الذَّهَبيِّ »

أَمامَ جُلوكـ .

فَقَالَ الملكُ القزمُ « شُكْراً لك ، لَا تَخَفْ يابُنَيَّ » وكان جُلوكـ قد أَبدى شيئاً من الدَّهشةِ لهذا الذى ما كانَ ينتَظِرُهُ . « ولماذا لَمْ تأْتِ قبلَ الآن بدَلًا من أَن تُرسِلَ أَخَوَيْكَ اللَّعِينَيْنِ ، اللذيْنِ قَدْ أَجْهَدَانِي عِنْدَ ما حَوَّلْتُهُمَا الى صَخْرَتَيْنِ . نعم ، الى صخرتيْنِ جامِدَتيْنِ صَلْدَتيْنِ »

فصاح جُلوكـ « يالله ! هَل أنت من القسوة حتى تفعل ذلك ؟

— « مِن القسوةِ ؟ لقد سكبا ماءً نَجِسًا فى



شكرا لك لا تخف يابنى

نهرى ، أتظنُّ أننى أتساهلُ فى أمر ذلك ؟ »

فقال جُلوكـ « ولـكنَّنى أؤكِّدُ لك ـ أقصد جلالتكم ـ أن ذلك الماء كان مقدساً »

فقال القزْمُ « رُبما كان ذلكَ ، ولـكن ـ وأَخَذت تبدُو على وجههِ أمارَاتُ الجِدِّ ـ ولـكنَّ الماء الذى يُمنعُ عن الذى يكادُ يموتُ عطشاً ، وعن المُجهَدِ المنهوكِ ، ليسَ بماءٍ مُقدَّسٍ وَلو باركَهُ أولياء الأَرضِ جميعاً ؛ وأن المـاء الذى تحْويهِ آنيَةُ الرَّحمةِ ماء مقدسٌ ولو دنَّستْهُ أجسَامُ الموتَى .. »

وما أتمَّ كَلامَهُ ، حَتَّى انحنَى وقَطفَ زُنبُقَةً

بَيضاءَ عنـد قدميْهِ ، وعلى أوراقها البيضاء كانت ثلاثُ قطراتٍ من النَّدى ، سَكبَها القَزْمُ فِي الزُّجاجةِ الفَارِغَةِ التى كانَ يحْمِلُهَا جُلوك بَينَ يدَيْهِ . وقال له « اسكُبْ هذه القطراتِ فى النَّهرِ ، ثُمَّ اهْبِطْ من جانِبِ التِّلَالِ الى حَيْثُ وَادِى الـكَنْزِ . وَأَسْرِعْ الْخُطَى . . . »

وبينما كانَ يتكلَّمُ ، أَخذَ شكلُه يختفِي شيئاً فشيئاً . وأَخذتْ أَلوانُ رِدائِهِ تَستَحيلُ الى شِبه ضبابٍ مندًّى ، تَمنْطقَ به كأنهُ نِطاقٌ من قوسِ قُزَحٍ وأَخذتِ الأَلوانُ تبْهَتُ ، والضبابُ ينقشِعُ فى الهواءِ

واذا بِملِكِ النَّهْرِ الذَّهبيِّ قد اختَفى »

وأَخذ جُلوك يَرْتَقِي الى ضَفَّةِ النهرِ الذَّهبي ، وكانتْ أَمواجُهُ صَافِيَةً ، كأَنَّها البِلَّوْرُ ، وزاهيةً كأنَّها أَشعةُ الشَّمسِ .

ولما سكَبَ قطَراتِ النَّدَى ، انفرجَ الماء عن دائرَةٍ صغيرةٍ استقرّت فيها ، ثم التأَمتْ بصوْتٍ موسيقيّ .

وأَخذَ جُلوك يرقُبُ ذلكَ بُرهةً مِنَ الزَّمَنِ . وما أَشدَّ يأسَهُ حينذَاك ، لا لِأَنّ مياهَ النهرِ لم تتحول الى ذهبٍ خالصٍ فقط ، بَلْ لِأَنَّها أَخذتْ تَغيضُ شيئاً فشيئاً .

ولـكن جُلوك أطاع وَصيّةَ ذلك القزمِ ، وانحدرَ من الجانِبِ الآخَرِ الى وادى الـكَنْزِ ، وبينا هُوَ فى طَريقِهِ ، تصوَّر أنَّهُ يَسْمَعُ خرِيرَ الماء يَجرى تحتَ طَبقاتِ الأَرْضِ . وَما إن وصلَ حتّى رأى جَدولًا كأَنَّهُ النهرُ الذَّهَبِىُّ ، يَنبُعُ مِن فَجْوَةٍ بين الصُّخُورِ ، ثم يتَشَعَّبُ الى جَداولَ عديدَةٍ بين أكوامِ الرَّمْلِ الحمراء .

وبينما كَانَ جُلوك يُحدقُ النّظر الى وادى الـكنزِ ، اذَا بالحشائِشِ تَظهرُ على جَوانِبِ تِلكَ الجداوِلِ ، وَإذا بالنَّباتَاتِ الزاحفةِ تُغطِّيها ، واذا

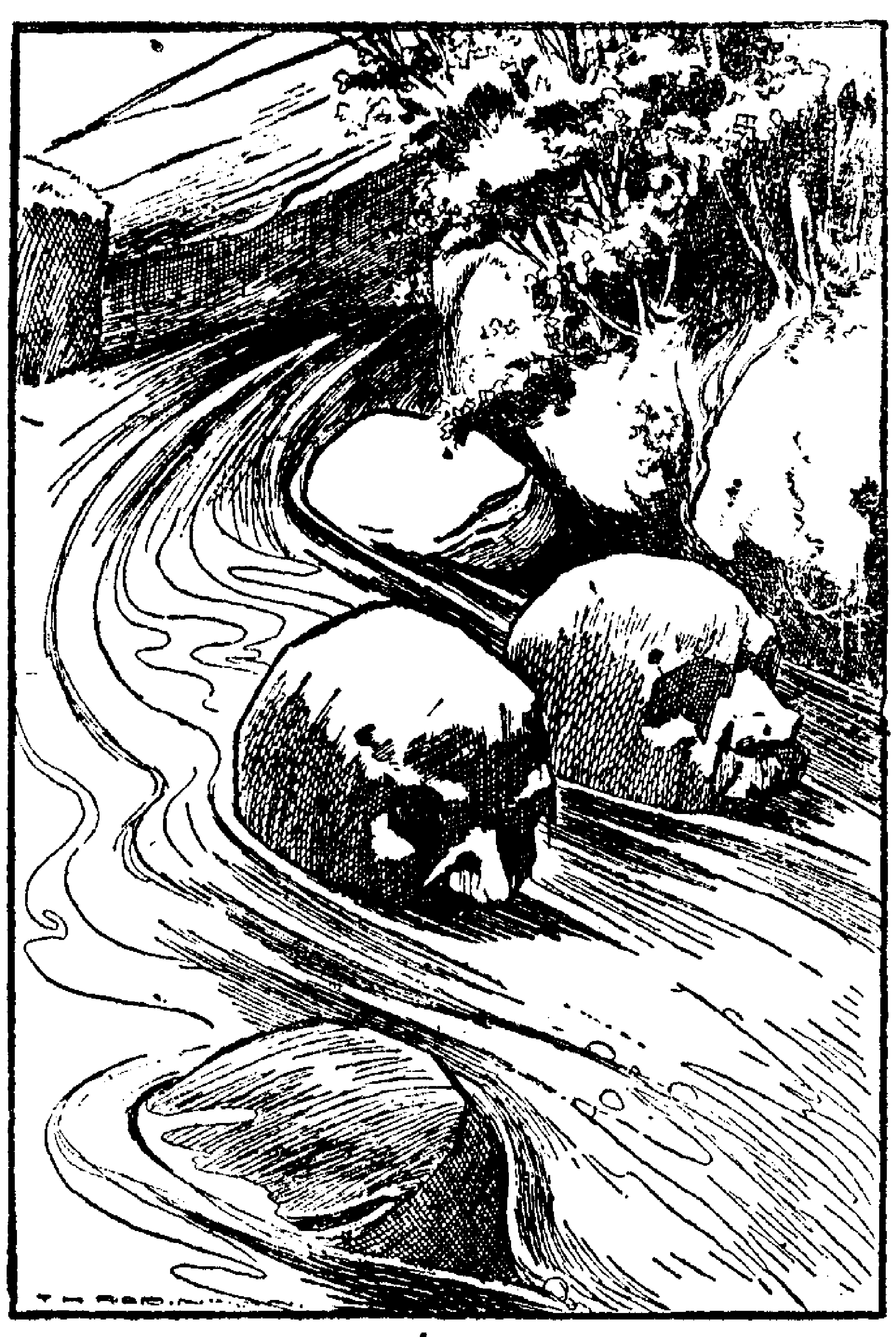
بالبَراعِمُ تتفتّحُ فجأةً كأنها النُّجومُ عندما تُظلم السماء.

وهكذا استحال وادى الكنزِ الى حديقةٍ يانعةٍ واسْتُرِد ذلك التراثُ بالْحب بعدَ أن أضاعَته القَسوةُ.

* * *

ثم ذهب جُلوك الى الوادِى، وعاشَ فيه من جديدٍ، وصار بابُهُ مأوى الْفقراء، وصارت مخازنُهُ تزْخَرُ بالغلة والكنوزِ. وهكذا صارَ ذلك النهرُ، كما وعد القَزْمُ، نهراً من الذّهب.

وَالى هذا اليومِ ما فَتِىءَ أهلُ ذلك الوادى يُشيرون الى ذلك المكانِ الذى سُكِبَتْ فيهِ قَطَراتُ



الاخوان الأسودان

الندى الثلاثةُ ، ويتبعون مجرى النهرِ الذّهَبِيّ تحتَ الأرضِ ، الى وادى السكنزِ .

* * *

وعِند مُنحَدَرِ النهرِ الذّهبِيّ ، مازِلْتَ ترى صَخْرَتَيْنِ سودَاوَيْنِ يتدفّق حَولهما الماء بصوتٍ حزينٍ عندَ غُرُوب كلّ شمسٍ .

وما زَالَ سكّانُ ذلك الوادِى ، يدعون تينكما الصخْرَتَيْنِ :

« الاخوينِ الأسودين »


مكتبة الأطفال الحديثة
شعارها
دع الطفل يعلم نفسه بنفسه
يصدرها :
أحمد عطية الله
المفتش بوزارة المعارف
تنشرها :
مكتبة عيسى البابي الحلبي
وشركاه بالقاهرة